

سعيد بنگراد

السميائيات والتأويل

مدخل لسميائيات ش.س. بورس



سعد بنكراد
السميات والتاويل
مدخل لسميات ش. م. - بورس

طبع هذا الكتاب بدعم من
وزارة الثقافة المغربية

الكتاب

السميات والتأويل

مدخل لسميات ش. من. بوزوي

تأليف

محمد بنگراد

الطبعة

الأولى، 2005

عدد الصفحات: 208

القياس: 14,5 x 21,5

الترقيم الدولي:

ISBN: 9953-68-105-8

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

مؤسسة تحديث الفكر العربي

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سبنا)

42 شارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 - 2307651

فاكس: 2305726 - 212 2

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بهرت - لبنان

ص.ب: 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقلمسي

هاتف: 01750507 - 01352826

فاكس: 01343701 - +961

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

الفهرست

11	تنبیه
13	تمهید: شارل سندرس بورس - معمار حیات
27	مقدمة
41	الفصل الأول: نظرية المقولات
71	الفصل الثاني: السيميائيات
107	الفصل الثالث: التوزيع الثلاثي للعلامة
129	الفصل الرابع: المؤول والمبرورة التأويلية
167	الفصل الخامس: التمييز بين الإنتاج والتلقي
197	المراجع
201	بيبلوغرافيا

تنبيه لا بد منه

حول النطق الصحيح لـ Peirce

إن اسم Peirce يجب أن يكتب وينطق بورس وليس بيرس .
وكل دارسي بورس يشددون على ضرورة الالتزام بالنطق
الصحيح لهذا الاسم . وهذا التحذير عادة ما يشير إليه هؤلاء الكتاب
في بداية كتبهم أو مقالاتهم . إلا أن هذا التشديد لا نجد له أي صدى
في الكتابات العربية . فهم يكتبون Peirce بيرس ولا يكلفون أنفسهم
عناء التأكد من النطق الصحيح . (نستثني من هؤلاء بطبيعة الحال
حنون مبارك الذي وصى هذه التحذيرات ، لذلك فهو يكتب ، في
كتابه دروس في السمبائيات ، بورس وليس بيرس) . ويبدو أن
التمادي في كتابة هذا الاسم بهذه الطريقة يعتبر إساءة لهذا الفيلسوف
وإساءة لثرائه . ونورد فيما يلي مجموعة من الشواهد لإثبات ذلك :

1- ينهنا دولودال في كتابه :

- Peirce (C S) : *Ecrits sur le signe* , Ed Seuil Paris 1978
- Deledalle (Gérard) : *La philosophie Americaine* , éd.
Nouveaux horizons, 1978

إلى ضرورة الالتزام بالكتابة الصحيحة لاسم بورس :

- فهو يشير في هامش الصفحة 7 من الكتاب الأول إلى النطق
الصحيح قائلا : - Peurce : prononcer ويقول في كتابه الثاني ص :

131 : Peurce : prononcer

2- أما لودفيتينغ ماركوز ، فيقول في كتابه :

- Marcuse, Ludwig : La Philosophie Americaine, éd Gal-
limard, col Idées, 1967

ص 49 : Il l'appelaient professor peirce, bien qu'il ne
fût pas professeur et que son nom ne s'écrivît pas **Peirce**,
mais Poerss...

3- أما بول غوبلي وليترا جانز ، فيقولان في كتابهما :

Semiotique for Beginners , éd ICON Books , 1997

ص 18 : Hailed as the foremost American Philosopher, "
Charles Peirce (pronounced purse) was born into....

لهذه الأسباب سنلتزم في كتابنا هذا بالنطق الصحيح لهذا الاسم
وسنكتب Peirce بورس وليس بيرس .

شارل سندرس بورس

مسار حياة *

" لم يكن يوسعي أن أدرس أي شيء سواه تعلق الأمر بالرياضيات أو الأخلاق أو الميتافيزيقا أو الجاذبية أو الديناميكية الحرارية أو علم البصرات أو الكيمياء أو علم التشريح المغارن أو علم الفلك ؛ أو علم النفس أو علم الصوت أو الاقتصاد أو تاريخ العلوم ، وكذا الروست (ضرب من لعب الورق) والرجال والنساء والخمر والميتولوجيا ، إلا من زاوية نظر سميائية " .

ش . س . بورس

في التاسع عشر من أبريل 1914 توفي شارل سندرس بورس مؤسس السيميائيات الحديثة ، وكان آنذاك في الخامسة والسبعين من عمره ، «معزولا ومحروما من كل شيء ، بلا صديق ولا مرشد ولا ناشر ، كان حينها ما يزال منكبا على إنجاز مؤلفه الخاص بالمنطق » .

بهذه العبارات ينهي ويس سيرة بورس في

.Dictionary of American Biography

* - اعتمدنا في كتابة هذه السيرة على الكتب التالية :

G Deledalle : La Philosophie américaine. éd . Nouveaux horizons, 1983 -

Ludwig Marcuse : La Philosophie américaine. éd Gallimard. col Idées, - 1967

Peirce , Textes Anticartésiens. Présentations et traduction , Joseph Chenu, - éd Aubier , 1984

Nicole Éveracrt-Desmedt : Le Processus interprétatif , Introduction à la sémiotique de C . S Peirce, éd Mardaga éditeur, 1990

توفي علم من أكثر الأعلام الفلسفية أصالة وإبداعاً بعد حياة مليئة بالتقلبات والإخفاقات التي طالت كل شيء في حياته . فلقد عاش أغلب فترات حياته فقيراً معدماً محروماً من أي وضع اعتباري أو مادي ، تاركاً لنا تراثاً ضخماً في شتى مجالات المعرفة ، أغلبه لم يعرف الطريق إلى النشر إلا بعد وفاته بسنوات .

ففي العاشر من سبتمبر 1839 ولد شارل سندرل بورس في كامبردج في ولاية ماساشوسيتس في الولايات المتحدة الأمريكية من أب عالم عتده البعض من ألمع علماء أمريكا في القرن التاسع عشر ، فلقد كان بنجمان بورس أستاذاً كبيراً للرياضيات لمدة ثلاثين سنة في جامعة هارفارد حتى قيل إن بورس ولد في " حرم جامعي قائم الذات " . وفي هذا البيت المنعم بحب العلم والثقافة نشأ بورس وترعرع . وبالإضافة إلى ثقافة الوالد وعلمه ، كان بيت الأسرة قبلة للفنانيين والعلماء والأدباء من كل اتجاه ، الشيء الذي مكن بورس من الاحتكاك المبكر برجال العلم والتعرف عن قرب على عوالمهم وطباعهم واهتماماتهم .

ولقد كان أبوه أول أساتذته . فعلى يديه تعلم ، وهو ما يزال حديث السن ، الكيمياء والرياضيات . وهو كانت عنده ميول فطرية للمنطق والفلسفة وهما المجالان اللذان سيكرس لهما حياة بأكملها . وهكذا ، وفي سن مبكرة جداً سيطلع بورس على كتاب كانط " نقد العقل الخالص " الذي يقال إنه حفظه عن ظهر قلب .

وفي سن السادسة عشرة من عمره أدخله والده إلى جامعة هارفارد لكي يتابع دروساً في الرياضيات والفيزياء ، ثم الكيمياء

ليحصل على شهادة عليا سنة 1860 . وعلى الميثريز سنة 1862 ،
وعلى الإجازة في الكيمياء سنة 1863 .

وبفضل علاقات والده ، سيحصل على وظيفة سنة 1860 في
المصلحة الجيوديزية (علم من علوم الأرض) للولايات المتحدة
الأمريكية ، وهي الوظيفة التي ستكون مصدر عيشه طوال حياته .

وفي سنة 1862 عقد قرانه على فتاة أمريكية من عائلة عريقة
تدعى هاريت ميلوزينا فاي . وفي نفس الفترة تقريبا تعرف على وليام
جيمس صديق عمره ، وكان بورس آنذاك يكبره بثلاث سنوات .

بعد ذلك بثلاث سنوات سيلقي دروساً حول المنطق والفلسفة في
جامعة هارفارد كأستاذ مؤقت . ولم تدم هذه الدروس سوى موسمين
جامعيين : 1864/1865 ثم 1866/1867 . ولن يحصل أبداً على
منصب دائم في الجامعة لا في هارفارد ولا في جامعة جون هوبكينز
ولا في أية جامعة أخرى بسبب مواقفه ومزاجه كما سنرى ذلك .

في هذه السنة ، أي 1867 ، وكان عمره آنذاك 28 سنة ، سيكتب
بورس مجموعة من المقالات المؤسسة التي سيكون لها أثر حاسم
في تطور فكره السيميائي ، رغم كل التعديلات التي ستلحق
مصطلحيته وتصوره للقضايا الخاصة بالسيميائيات تحديداً . وهذه
المقالات هي :

- Questions concernant certains facultés que l'on prête à l'homme
- Conséquences de quatre incapacités
- Fondements de la validité des lois logiques

وهي المقالات التي عمل دافيد سافان - أحد المهتمين الكبار بفكر بورس - على جمعها وترجمتها إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان: *Textes Fondamentaux de la Sémiotique* . وكان ذلك سنة 1987 .

وفي سنة 1875 رحل إلى أوروبا، وتعاون مع مجموعة من العلماء في: *l'observatoire et le bureau des longitudes* وهناك تعرف على هنري جيمس . وفي هذه الفترة أيضا انفصل عن زوجته الأمريكية، التي غادرت فرنسا عائدة إلى أمريكا بينما مكث هو هناك مستين كاملتين .

وبعد عودته إلى أمريكا كتب مقالين هامين الأولى :

- *Comment se fixe la croyance* سنة (1878)
- *Comment rendre nos idées claires* (1879)

ولقد كتب هذين المقالين باللغة الفرنسية

وقد نشر جوزيف شوني سنة 1984 هذين المقالين بالإضافة إلى المقالات الثلاثة السابقة مترجمة إلى الفرنسية تحت عنوان *Textes anticartésiens* .

وقد التحق سنة 1879 ، كأستاذ مؤقت أيضاً، بجامعة جون هوبكنز في بالتيمور ليدرس المنطق لمدة خمس سنوات حتى سنة 1884

وقبل ذلك، أي في سنة 1883، تزوج من جليد بفتاه فرنسية من مدينة نانسي، اسمها جولبيت أنيت بورنالي . وهي المرأة التي عاش معها حتى مماته سنة 1914، وقد قاسمته الجوع والبرد والحياة المتعددة .

فقد وجد نفسه ، بعد أن رفضت الجامعة تحديد عقده والالتحاق
بمهمة التدريس كأستاذ رسمي ، بدون دخل تقريبا . فاضطر إلى بيع
مكتبه القيمة . ولهذه المكتبة قصة فقد قام وهو في أوروبا باقتناء
حرائق كاملة في المنطق القروصطي ، بلغ عدد كتبها 295 كتابا
وأحضرها معه من أوروبا إلى أمريكا وكان شديد الاعتزاز بها ، إلا أن
الحاجة كما رأينا اضطرتة إلى بيعها بـ 550 دولارا فقط ليستطيع
لبعض حاجاته .

وفي سنة 1887 ، وكان عمره آنذاك ثمانية وأربعين سنة ،
انسحب من الحياة العامة وعاد إلى ميلفورد حيث بسى منزلا من مال
ورثه واستقر فيه بشكل دائم . إلا أنه ، وكما هي عادته ، قد نثر ما
تبقي من المال بسرعة ، ليجد نفسه من جديد في وضعية الفقر
والحرمان . وابتداء من هذه الفترة سيواضب على كتابة مقالات
لبعض المجلات مقابل أجر رهيد لم يكن كافيا لسد الحد الأدنى من
حاجاته . وموازة ذلك سيكتب على إنحار مشروع ضخم يتمثل في
كتابة 12 مجلدا حول المنطق ، إلا أنه لم يتم سوى مجلدين لم يعرفا
طريقهما إلى النشر إلا بعد وفاته .

وفي سنة 1903 ألقى بورس ، بفصل تدخل صديقه وليام
جيمس ، سلسلة من المحاضرات حول المنطق في جامعة هارفارد .
ونشرت هذه المحاضرات تحت عنوان :

Le raisonnement et la logique des choses /

بإشراف كل من كنيث لاين كتنر وهيلاري بوتنام ، وقامت
كرستيان شوفيني بنقل هذه المحاضرات إلى الفرنسية سنة 1995 .

إلا أن أهم ما يميز المرحلة التالية الممتدة من 1903 إلى 1911 هي مراسلاته الدائمة مع السيدة ويلبي . وفي هذه المراسلات أوضح بورس الكثير من القضايا الخاصة بمصوره للفعل السيماني وكذا الحفول المرتبطة به كالمسطق والفينومينولوجيا . وهكذا أعاد صياغة مجموعة من المفاهيم كالمؤول والثالثانية التي طرحها في 1867 بشكل معايير أو أقل دقة قل أن يعود من جديد ليدقق مضمونها .

والسيدة ويلبي ، هي سيدة إنجليزية كانت تهتم بقضايا المعنى والتأويل وإنتاج الدلالات . وقد حاولت هي الأخرى تأسيس علم للدلالات كانت تريد أن يكون علما دقيقا أطلقت عليه . la *signifique* . وأصدرت في هذا المجال ، قبل أن تتعرف على بورس وترتبط معه بهذه المراسلات كتابا بعنوان " المعنى والدلالة والتأويل " سنة 1896 ، وبعده أصدرت كتابا آخر بعنوان " بذور المعنى " . وكما يبدو من التعريف الذي تقدمه لما تسميه la *signifique* فإنها كانت قريبة جدا من التعريفات المتعددة التي يعطيها بورس للسميات خاصة فيما يتعلق بعلاقة السميات بالمسطق . فهي تعرف هذا النشاط بقولها : " إن *signifique* هي علم للدلالة شريطة الاعتراف بطابعه العملي باعتباره منهجا لمكر موحود في كل أشكال النشاط الذهني ، بما هي ذلك النشاط المنطقي " .

ومن جهة ثانية ، وكما سرى ذلك في فصول هذا الكتاب ، فإن la *signifique* ليست بعيدة عن مفهوم السميوز الذي يلوذه بورس انطلاقا من دراسته للعلامة ومكوناتها وطبيعة العلاقة الرابطة بين هذه المكونات ففي الحالة الأولى كما في الحالة الثانية ، فإن الأمر يتعلق بالضرورة المؤدية إلى إنتاج المعنى .

ولمدة سنوات كان بورس يتحدث هذه السيدة العالمية عن مشروعه السماوي، تشعباته المتعددة الفينومولوجية حيث ركز على تحديد العقولات بعيدا عن التصور الأرسطي وبعيدا عن التصور الكانطوي، مستبعدا في نفس الآن تصورات هومسرل عن الفينومينولوجيا التي يقول عنها إنها « تثير عنده العثيان » لارتكازها على الطابع المباشر للتجربة كما جاء في رسالة إلى السيدة ويلبي.

وقد قصى ما بقي من عمره يعاني من الجوع والفقر والمرص، مسيا ومعرولا في ميلفورد وقد أنهكه الحرمان، بلا صديق ولا أتباع ولا صيت ولا جاه. منكبا على كتبه ومشروعه العلمي الذي لا ينتهي ويكتب ما يقرب من ألفي كلمة يوميا إلى أن توفي سنة 1914.

لقد كانت أعماله موزعة بين الفلسفة والمنطق والرياضيات والميتافيزيقا والدين والكيمياء والميزياء وعلم البصريات وعلم النفس والتاريخ القديم. كما كان يقوم بترجمة بعض النصوص من الألمانية واللاتينية إلى اللغة الانجليزية. هذا بالإضافة إلى أنشطة أخرى ليس أقلها غرابة تخصصه في " تذوق الخمر ".

وهناك لغز حير كل الذين اطلعوا على تراث بورس وحياته فرغم كل ما قبل عن عبقريته وسوغه وسعة اطلاعه فإنه لم يستطع أبدا الحصول على منصب أستاذ رسمي في الجامعة (جامعة حور هومكسر التي قدم لها طلبه مرارا وتكرارا) ولقد أثار هذا الرقص لاهتمام العديد من الباحثين الذين حاولوا الكشف عن سر هذا الرقص. فكل شيء كان يشرح بورس لمنصب أسناد للفلسفة في هذه الجامعة أو في غيرها. لقد كان أكثر الفلاسفة أصالة في أمريكا

في تلك المرحلة، كما كان واسع الاطلاع متعدد الاهتمامات
ورغم ذلك تم إبعاده عن الجامعة ولم تتح له فرصة الدفاع عن آرائه
أمام جمهور الباحثين الجامعيين.

لقد رد البعض هذا الرفض إلى حادثة رواجه ثم طلاقه وعلى
الرغم من أن الطلاق في تلك المرحلة لم يكن بالسلوك المقبول،
فإن ذلك لا يمكن أن يشكل تفسيراً مقنعاً لرفض الجامعة لترشيحه.
فهو لم يكن أول من تزوج وطلق، فكثيرون من الباحثين أمثاله
تزوجوا وطلقوا ورغم ذلك كانوا أساتذة في الجامعة.

وقيل أيضاً إنه لم يكن بالمواطن الذي يراعي في سلوكه
متطلبات محيطه فلم يكن «قادراً على الخضوع للمقتضيات التي
تتطلبها الأخلاق». ويلاحظ لودفينغ ماركوز الذي أورد هذه
التأويلات في كتابه الذي أحلنا عليه في هامش هذه الصفحات، أن
هذه الجملة مكتوبة وعامضة ولا تعني أي شيء. «ليس مطلوباً من
عالم أن يقدم كشف حساب عن سلوكه اليومي لكي يقل كأستاذ.

بالإضافة إلى ذلك هناك من لم يستبعد أن يكون سبب رفضه
مبولاته إلى شرب الخمر، فهو، بالإضافة إلى ثقافته الفلسفية
والمسطحية الواسعة، كان مطلعاً على تقنيات تدوق الخمر فقد عهد
به أبوه إلى مكلف بشعزيرين الخمور في فرنسا ليدرجه على تدوق
الخمور. إلا أنه، وكما يقال، لم يكن يكتفي بالتفوق !!!

وهناك من رد أسباب هذا الرفض إلى طبيعته الفكرية ذاتها،
فالملاحظ أنه طيلة حياته لم يكتب سوى كتابين، نشر أحدهما في
حياته، ولم ير الآخر النور إلا بعد مماته، فهو لم يكن يعير اهتماماً

لهذا الأمر ، وكان يكتب في ميادين متعددة ومتضاربة ومتباعدة عن بعضها البعض ، الشيء الذي يجعل من تحديد خيط صائب لأفكاره أمرا صعبا ، والذين اطلعوا على بعض كتاباته يدركون ذلك حينما ومضمون أعماله التي جمعت بعد موته في مجلدات تحت عنوان collected papers يوضح ذلك . فلقد عمل مجموعة من الباحثين لفترة طويلة من أجل التمييز بين الحقول المتعددة التي تحوّل فيها هذه الكتابات (عمل جيرار دولودال فيما يتعلق بالسميات ، عمل د . سافان ، حوزيف شوبو ، تريزا كالمي فيما يتعلق بالنصوص الفلسفية ، المحاضرات حول المنطق التي جمعها كنيث كتر . . . الخ) . فلقد كان قليل الاهتمام بتنظيم أفكاره ، وكان ذلك يعد "عبثا" خاصة عند شخص ستكون مهمته هي تعليم الطلبة .

وقبل أيضا إنه كان يمتد إلى سق عام تتظم ونصف أفكاره صممه ، وهو ما يعني عدم إيمانه بنسق فلسفي بعينه . إلا أن هذا أيضا لا يمكن أن يكون سببا كافيا لكي يحرم من التدريس في الجامعة . فمفكرون كبار لم يكتبوا كتباً ولم يثروا مجلدات ، ولم يعلنوا أسماءهم إلى تيار فلسفي بعينه في تلك الفترة وفي غيرها ، ومع ذلك احتلوا مناصب كبرى في الجامعة .

إلا أن هذه المواقف ذاتها لا تفسر كل شيء . فلم تكن هي وحدها التي حرمت من الحصول على منصب أستاذ جامعي . لقد كان لمراجع وموقعه من الناس وسلوكه دور أساسي في ذلك . فلم يكن يدرس اجتماعيا ، ولم يكن يعرف ماذا يعني أن يكون الإنسان اجتماعيا ، فهو قد خصص كل وقته للبحث العلمي ، الشيء الذي

جعله منقطع عن الدنيا وما فيها . فالأحرون كانوا غوغاء في نظره ،
وكما كان يقول « فالإنسان هو أساسا كائن اجتماعي ، ولكن شئنا بين
الكائن الاجتماعي وبهيمة في قطع » وهذا موقف عني عن كل شرح
وتوضيح .

يضاف إلى ذلك تعاليه وازدراءه للآخرين ، وهو اردراء لم يسلم
منه حتى وليام جيمس نفسه وهو أقرب الناس إليه وكان أكثر من وقف
معه في الشدائد والملحات ، بل حدث أن قام جيمس بنظم اكتاب
لكي يساعد صديقه على محاربة متطلبات الحياة . ورغم ذلك ، فقد
حدث أن لاه على طريقة تفكيره ، وحدثه على " انهاج الطريق
الصحيح في التفكير " كما أورد ذلك ويس الذي كتب سيرته .
وسمير بورس في رسالة إلى جيمس عن تصوراته للناس وعن الصورة
التي يرسمها لنفسه قائلا : « لقد نكون لدي شيئا فشيئا نوع من التعالي
مفاده ما يلي " أنت أيها الآخر رحل طيب على طريقك ، ولا
يهمني بالتأكد من تكون ، أما أنا ، وكما تعرف ، إني السيد بورس ،
الشهير باكتشافاته العلمية العديدة ، والشهير خاصة بتواضعه الجرم ،
وفي هذا المجال لا يضاهيني أحد » . بطبيعة الحال فالموقف عني
عن أي تعليق .

وهناك أيضا موقفه من الجامعة ذاتها ، فيقدر ما ظلت هذه
المؤسسة مستعصية عليه ، بقدر ما كان يكن لها الاحترار والاردراء
وهي لم تكن عنده سوى " قضاء للجلتلمان والرياضيين " (والمقصود
هنا جامعة هارفارد بالأساس) . لهذا لم يكن يعبر كبير اهتمام
لأساليب التدريس والبيداغوجيا ، فلم يكن ير في نفسه ملها هادئا

ومطعمتنا لمجموعة من المعارف . وهذا ما يبدو من كلام طالبة تالمت بعض دروسه ، حين أمنت إليه ذات مرة مهمة إلقاء بعضها ، بشكل مؤقت ، على طلبة الجامعة في جون هوبكينز ذاتها . لقد قالت تلك الطالبة بأنه « ولعدة ثلاث سنوات لم يكلف نفسه عناء النظر إليها أو مساءلتنا أو الانتباه إلينا » وبأن أفكاره « كانت لا توصف ، فهي لا تمضي إلى أي شيء » و « بأنه لا يكلف نفسه عناء توصيح أفكاره »⁽¹⁾

وهذا ليس غريباً ، فهو كان يعتقد « أن أفكاره شديدة الترابط فيما بينها ، وعلى عائق الآخرين تقع مهمة البحث عن هذه الترابطات . إنه يكتفي بتحليل الأفكار ، لترك للقارئ مهمة استنباط النتائج وبناء الأطروحات » . ولعل هذا ما يفسر « تردد الناشرين ورفضهم لأعماله » .

ولنا أن نتصور إلى أي حد تصل الثقة بالنفس إن لم نقل التعالي المصروط بشخص يقدم طلباً لشغل منصب أستاذ في الجامعة ، ويشترط على رئيس الجامعة : « في المقام الأول أن يكون هو ، الوحيد الذي يدرس مادة المنطق ، وأن يتم تحويل وظيفته إلى منصب أستاذ رسمي » . هكذا كان يتعامل بورس مع طلب الالتحاق بالجامعة .

إن هذه الأسباب مجتمعة لم تحرمه فقط من الحصول على منصب في الجامعة فحسب ، بل خلقت له الكثير من الصاعب في حياته العامة والخاصة على السواء أيضاً . فقد اضطر للانفصال عن زوجته الأولى ، وناصبه الكثير من زملائه العداء ، ولم ينجح في خلق

الكثير من الأصدقاء ، باستثناء مجموعة قليلة منهم وعلى رأسها وليام جيمس الذي ظل وفيًا له طيلة حياته .

ومع ذلك كله فالأسباب الحقيقية لم يشر إليها إلا لماما ، أو تم تجسها باستمرار . وهي أسباب لا يبدو أن لها علاقة بالروح وبالعلاق أو بمعاقرة الخمرة أو بالمزاج الصعب الح ، وإنما لها علاقة بالنظام الفكري والتقاليد السائدة في الجامعة آنذاك (خاصة جامعة جون هوبكنز التي كانت حديثة التأسيس آنذاك) ، وهو نظام كان يتسم بالمحافظة واليقينية والامتنالية ، لذلك كان يتطلب أفكارا لا تزعم . ولقد قال وليام جيمس ، عن هذه الجامعة ، بـ «أنها كانت توكل منصب أستاذ إلى شخص موثوق به ويتميز بالعقائدية» ، وعن رئيس الجامعة قال بأنه شخص حقوق لا يرتاح "للمتهاونين" في أفكارهم

فهل كان بورس من هذه العينة ؟ هل كان رجلا يمكن أن "يؤمن" على قيم الجامعة ونظامها ، وله السلوك الفكري العقائدي المطلوب ؟ لا يعتقد ذلك . وهذا لا يتضمن أية إيجابيات غير ما تعبى مباشرة . بورس بالتأكيد ، لم يكن من الوجهة العقائدية ، يشكل خطرا على الجامعة وعلى قيمها الدينية والأخلاقية فهو لم يدع إلى الإلحاد ، ولم يكفر بالنظام الاجتماعي وقيمه ، كما لم يشكك في السراتية داخل الجامعة وخارجها ، إلا أن نظره إلى البحث العلمي ودور الجامعة وكذا دور الأستاذ ورسائله كانت بالتأكيد مزعجة

فلم تكن مهمة الجامعة عنده هي تقديم نتائج علمية جاهرة ، كما لم يكن يرى أن الجامعة هي مؤسسة لتخريج الباحثين عن وظائف

توفر لجامعي الشهادات مصدر رزق دائم لقد كان يعتقد أن دور الجامعة الرئيس هو البحث العلمي، فهي مكان للتدريس في حدود أن هذا التعليم يقود إلى تعليم الطلبة كيف يفكرون ويستجوب أفكاراً مستقلة. إن دور الجامعة هو تربية الناس وتوجيههم نحو البحث عن المعرفة بطرقهم الخاصة. «فإن يجلس الطالب في هذه القاعة أو تلك من قاعات الدروس فذاك أمر ثانوي، فالمطلوب من أي أستاذ هو شحذ فكره المنطقي ودكائه في شتى مجالات المعرفة والتربية عنده لم تكن سوى تربية من أحل الاستمرار في التفكير بعد أن يكون الطالب قد تعود على ذلك»⁽²⁾. ولقد كان هذا التصور في تلك المرحلة تصوراً مرعجاً عند الفانيس على جامعة كان ينظر إليها رجال الدين باعتبارها بؤرة للكفر.

وهناك من شبه الإحماقات الأكاديمية لبورس بما حصل لسقراط فسقراط قتل لأنه كان، في نظر مواطنيه، يفسد الشباب، فقد كان يدفعهم إلى إعادة النظر في المقولات الموروثة عن السلف. ولم يكن تأثير بورس من هذا الحجم. لقد كان يتوجه إلى نخبة محدودة العدد، كما أنه لم يكن يدفعها للإيمان بألهة جديدة، ولكنه كان يدفعها إلى التحليل المنطقي. وهذا ذاته لم يكن يشكل خطورة حقيقية على قيم المجتمع. «لقد جُرم بورس بناء على ما لم يفعل. فهو لم يكن يقود جمهور الأكاديميين إلى الله والروح والخطود»، كما يقول ليفيغ ماركوز. «ومأساته لا تكمن في أن أفكاره كانت غير مرعوب فيها، ولكنها تكمن في أنه لم يكن يتوفر على الأفكار

المرعوب فيها (. . .) . لقد كان بورس بائعا فاشلا ، لا لأنه لم يكن يمتلك بصاعة جيدة ، بل لأنه كان يطرد الزبناء . فبعد مماته فقط استطاعت أعماله أن تتحرر من مدعها الذي كان يسد في وجهها الأبواب .⁽³⁾

سنوات بعد ذلك سيتذكر الناس بورس من جديد ، وسيوصف بأنه أكثر فلاسفة أمريكا المعاصرين أصالة ، وسيحتفى بترائه الفلسفي والمنطقي والسمياني . وستقوم جامعة هارفارد بشراء مخطوطاته وستقوم مجموعة من الأساتذة بجمعها في ثماني مجلدات تحت عنوان : Collected papers .

المجلدات الستة الأولى ظهرت ما بين 1931 و1935 تحت إشراف هارتشورن ويس . وستنظر إلى سنة 1958 ليظهر المجلدان الباقيان وقد جمعت في هذه المجلدات الثمانية كل أعماله في المنطق والرياضيات والفلسفة والسميانيات والفيزياء

(3) معه ص 59

مقدمة

بدءاً يمكن القول إن السيميائيات في تصور بورس ، ليست مجرد أدوات إحصائية يمكن استثمارها في قراءة هذه الواقعة النصية أو تلك ، كما لا يمكن أن تكون نموذجاً تحليلياً جاهزاً قادراً عن الإجابة عن كل الأسئلة التي تطرحها الوقائع . إنها على النقيض من ذلك فعل ، أي سميوز ، والسميوز ، كما سنرى ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب ، سيرورة لإنتاج الدلالة وبمط في تناولها واستهلاكها وبعبارة أخرى ، إنها تصور متكامل للعالم . ذلك أن الإمساك بهذا العالم باعتباره سلسلة لا متناهية من الأنساق السيميائية ، أي باعتباره علامات ، يشير إلى استحالة فصل العلامة عن الواقع ، ما دام هذا الواقع نفسه يُنظر إليه باعتباره نسيجاً من العلامات ، أي سلسلة من الإحالات التي تصمح لحظة استيعابها في العمل الإنساني .

إلا أن موتها هنا ليس موتاً نهائياً ، إنه موت مؤقت وعرضي فهذا العمل الإنساني يوكد من جديد لحظة تحققه ، سلسلة من العلامات التي تُدرج ضمن سلسلة جديدة من الإحالات ، وهكذا دواليك . فكل فكر ' هو فكر ناقص بالضرورة ويحتوي على الصمني والكامن ' (بورس) ، فهو يحتاج ، لكي يحيل على فكر آخر ، إلى فكر سابق وهكذا إلى ما لانهاية .

ولهذا فإن السميات، في تصور بورس، ليست صنفًا جامدة تدرج أنواع العلامات في خانات قارة بشكل نهائي. إنها، على العكس من ذلك، ترد كل الأنساق إلى حركية الفعل الإنساني. إنها تجعل من الإنسان علامة وتجعل منه صانعًا للعلامة وتقدمه كضحية لها في نفس الآن. فالإنسان هو المنتج للسلوك الفردي وهو الذي يحول هذا السلوك إلى قاعدة جماعية، أي يجعل منه عادة نشتل كمزوج يحكم السلوك الفردي. وهذه العادة هي ما يستمر في الحياة بعد موت العلامة. إنها ولادة جديدة - ولادة القيم الاجتماعية وشهادة على نموها واضمحلالها أي موتها، لتولد من تحت أنقاضها قيم جديدة - فلا وجود لتصنيف مسبق، فما يعين هو ذاته ما يشير إلى التجاوز. تجاوز العلامة لنفسها (فكل عنصر من عناصرها ينتج آثاره المعنوية الخاصة)، وتجاوز التصنيف لنفسه (كل تصنيف قد يولد تصنيفًا جديدًا هو تركيب لعنصرين أو أكثر)

وهي، من جهة ثانية، تترك العالم باعتباره كلية (ليس هناك فصل بين الواقع والمكر)، ولكنها تضع هذا العالم للتداول باعتباره أساسًا غير قابلة للوصف الكلي (الفصل بين موضوع مباشر وموضوع دياميكي)، فهي تعترف بأن النسق الدلالي - بحكم اندراجه ضمن حركية الواقع - غير قابل للوصف إلا جزئيًا من جهة، وهي تعترف، من جهة ثانية، بنسبية القراءة وتعددتها (العصل بين مؤول مباشر ومؤول دياميكي وآخر نهائي)

إلا أن هذه الثلاثية قد تثير الكثير من التساؤلات، فقد يُعترض علينا بالقول: إن تحديد العلامة كبناء ثلاثي معناه نفي لها، ما دام كل

مكون من مكونات العلامة يتحول بدوره إلى علامة تستدعي ثلثية،
وتسعا لذلك اندحارا لامتناهيا يمنع العلامة من أن تكون علامة. إن
هذا الاعتراض صحيح في حالة واحدة، الحالة التي تكون فيها نظرية
العلامة منفصلة عن فعل العلامة. والمحال أن الأمر ليس كذلك في
نظرية بورس. فالفصل عنه بين النظرية والممارسة معناه حرق لمبدأ
الامتداد. فالعلامة تولد وتنمو وتموت في الأشياء⁽¹⁾.

ولهذا، فإن دائرة العلامات تتسع لتشمل كل الموجودات، بل
إن الواقع ليس كذلك إلا في حدود مثوله أمامنا كعلامة، فلا يمكن
تصور إدراك حقيقي يجعل من الموجودات كيانات مفصولة عن
الذات التي ندركها، « فإذا قلتم بأن هذا الموضوع موجود في
استقلال عن كوني أفكر فيه، فإن كلامكم لا معنى له ». (بورس)

من هنا كانت ضرورة العودة إلى الأصول المعرفية المحددة لكث
هذه السميائيات وهذا أمر بالغ الأهمية، فنحن نعتقد أن ما هو
أساس في أية نظرية ليس التقنيات والأدوات والمفاهيم المعزولة، إن
هذه الأدوات أمر لاحق، ولا تشكل في نهاية الأمر سوى وجه مرئي
لأساس معرفي هو وحده الصامن لهوية النظرية ووجودها. إن
المظهر المعرفي لهذه النظرية هو ما يستهوينا، فهو وحده الذي قد
يسمعا على إدراك أفضل لخصوصية إنتاجا الفكري والإبداعي.
وسلاحظ القارئ الحاذق أن ما يجمع بين تصورات معرفية متعددة
وبين نظرية بورس، هو مطلقاتها الفلسفية وليس مجموع

(1) Deledalle. (Gérard) "Avertissement aux lecteurs de Peurce", in L'an-
gages n 58, P 26

المصطلحات التي جاءت بها . بل يمكن القول ألا شيء يجمع بين هذه النظريات وبين تصور بورس على مستوى المصطلحات .

إن هذه السميائيات ، كما أشرنا إلى ذلك في الفقرات السابقة ، لا يمكن اختصارها في سلسلة من الأدوات الإجرائية الحالية من أية روح ، لأنها ليست أجوبة عن أسئلة ' محلية ' و ' عرضية ' تخص هذا القطاع من المعرفة دون ذلك ؛ وهي كذلك لم ترتبط - في تصوراتها النظرية والتطبيقية - بدرس بعينه قد يحد من امتدادها وشموليتها وغناها . لقد كانت التحررة الإنسانية في كليتها نقطة انطلاقها وعمايتها في الآن نفسه . فالإنسان مهد العلامات ، وهو منتجها ومستهلكها والمروح لها . فلا شيء يوجد خارج مدار ما ترسمه العلامات من سيرورات دلالية لا يمكن أن تقف عند حد معين .

إنها تساؤل حول المعنى وتساؤل حول شروط إنتاجه وأشكال تجليه . فماذا تعني السميوز ، إن لم تكن لهاثا وراء معنى لا يستقر على حال . فالسميوز ، شأنها في ذلك شأن الفكر عند بورس ، فعل ناقص بالضرورة ، إنها تحتوي ، لحظة الإحالة ، على الصمني والمحتمل والكامن . ولهذا فهي لا يمكن أن تكون تعبيراً لمعنى مشتمل في الواقعة بشكل نهائي ، إنها على العكس من ذلك حيران لا تنتهي من الدلالات . وهذا إسهام أول من إسهامات بورس ، فلا يمكن البحث عن المعنى خارج العلامات ، ولا يمكن أن يفكر دون علامات ، فالمعنى موجود في العلامات ، والعلامات وحدها هي السبيل إلى إنتاج الدلالات وتداولها .

ورغم ذلك فإن بورس لم يكن قطعياً في تصوراتهِ، فمسألة الإحالات التي لا تنتهي عند حد معينه هي هروب من المعنى، والهروب من المعنى كاللهات وراءه، فلا أمل إذن في الخروج من دائرة المعنى، ولا أمل في الوصول إلى معنى كلي وبهائي، ألم يقل بورس : «إن السميور في هروبه اللامتناهي من علامة إلى علامة ومن توسط إلى توسط، تتوقف لحظة انصهارها في العادة، لحظتها تبدأ الحياة ويبدأ الفعل»⁽²⁾.

إن الأمر يتعلق بعبداً الامتداد . امتداد العلامة نحو الفعل، ورصد لأثر العلامة في الفعل . فهي تحيل على ما يوجد خارجها وتموت، ومن موتها تنبعث الفاعلة والقانون والعادة . فالتأويل غايات، ونحن نؤول وفق متطلبات حاجتنا بجميع أنواعها، فحاجتنا إلى الاستقرار على معنى يربحنا من لهات قد لا يجدي في شيء أمر في غاية الأهمية . من هنا كانت الدلالة عند بورس مستويات . إن السميوز لامتناهية احتمالاً، لكن الحاجات الإنسانية تقلص من حجمها وتفرض عليها حدوداً . من هنا كانت الحاجة إلى مؤولات وليس إلى مؤول واحد، وهذا إسهام ثان فالسميائيات عند بورس يمكن النظر إليها باعتبارها نظرية في التأويل، فما يحدد صحة العلامة هو الوجه المؤول داخلها، فالعلامة لا تحيل على موضوع محسب، إنها، بالإضافة إلى ذلك، تكشف عن معرفة جديدة نحصل هذا الموضوع

(2) انظر Umberto Eco: Le signe, éd labor, Bruxelles, 1988, p.205

وصدرت ترجمة عربية للكتاب من المركز الثقافي العربي بعنوان «القلري» في الحكاية

ولأن الموضوع هو أصل الإحالة، فإنه يتجاوز العلامة في الوجود وفي التمثيل. فلا يمكن لفعل التمثيل الذي يقوم به الماثول أن يستوعب، من خلال إحالة واحدة، كل المظاهر المعرفية التي يشتمل عليها الموضوع. إن الموضوع أغنى من التمثيل، فالحاجة إلى تمثيل جديد يستعيد العناصر المنفلقة من التمثيل الأول أمر ضروري، بل هو أساس بناء الوقائع ومبرر قراءتها وتأويلها. لذا فالموضوع عند بورس أنواع إبه في المقام الأول ما يبدو من خلال العلامة بشكل مباشر، وهو ثانياً ما توحي به العلامة من خلال فعل التمثيل ذاته، وهذا إسهام ثالث. فالإحالة الواحدة لا تستطيع استيعاب ما توفره التجربة في بعدها الواقعي (أسبقية المادة على الفكر)

تلك بعض الإسهامات النوعية التي جاءت بها سميات بورس. إنها إسهامات لا ندرك قيمتها الحقيقية إلا حين نتجاوز لائحة التصنيفات والتقسيمات الفرعية الخاصة بالعلامة، وهي تقسيمات توهم غير المختص بأن هذه الطرية معقدة وتستعصي على الفهم والإدراك. أما حين ندرك أن قراءة الوقائع الإنسانية (والنفد الأدبي جزء من هذه القراءة) ليست هلوسة مجابية أو هذياناً، ولا هي كتابة على هامش الكتابة الأولى، أو انطباعات لا يحكمها رابط ولا يجمع أجزاءها منطق، فإننا سنكتشف أن الذهاب نحو النص هو استنفار لرصيد معرفي هائل هو وحده الكفيل بتحويل القراءة إلى إنتاج للمعرفة، لا سطر لاصعالات صحلة سريعة الزوال، لا تحرك في النص ساكناً، فهي كذلك الطائر الذي قصى الليل على غصن شجرة ضخمة فاعتقد أنه أرهق كاهلها، فراح في الصباح يقدم لها الاعتذارات ويطلب منها العفو

فإذا أدركنا كل ذلك ، وتجاوزنا مستوى التصنيفات المركبة التي نعلمها هذه النظرية من خلال وجهها المعرفي ، انضج لنا أن نظرية بورس تقدم لنا إسهاما فعليا في قراءة النصوص وتأويلها وإدراك ما أمامها وما خلفها . فلا يكفي القول إن النصوص بؤرة للدلالات ، فالدلالات كثيرة ومتنوعة ، إلا أنها تتمنع ولا تسلم نفسها لأول عابر سبيل . إن الدلالة أسرار وكل سر يحيل على سر ، وقد لا يكون السر الأخير سوى لحظة توهم الذات بأنها استقرت على دلالة بعينها

فالعلامة لا يمكن أن تقف عند إحالة واحدة فما يطلق العنان للدلالة هو نفسه ما يجعل من إيقافها أمرا مستحيلا . فالسيموز لا متناهية ، ولا يمكن للدلالة أن تقف عند حد بعينه . فالنص عندما يتخلص من إرغامات المحفل المبدع يصبح هي حل من أمره ، ويسلم حينها نفسه لحركة تأويل لا تتوقف عند حد بعينه . تلك هي الخلاصة المباشرة لتصور بورس للدلالة وإنتاجها . إلا أن الوصول إلى ذلك يقتضي إماما بقوانين الدلالة وأشكال وجودها ومستوياتها ، ويقتضي أيضا إماما بمنطق الإحالات ومنطق الانتقال من الراوية المؤولة إلى موضوع التأويل . فهو موضوعات التأويل ليست واحدة ولا يمكن أن تكون كذلك ؛ بل هي نفسها أنواع . وتلك طبيعة الممارسة الإنسانية وذاك هو سرها .

صحيح أن ممكرا لتأوليا من طراز بورس لا يمكن أن يعمل باسميات دلالي لا حده . فهو يقر بأن التأويل يتم وفق حاجات بفعية ، فكل تأويل عنده يتم وفق غايات خارج سمبائية ، إلا أن المقصود بالانتهائية هنا هو إمكانية الانسياق وراء إحالات لا يمكن

نظريا أن تتوقف عند حد بعينه، فالفكر بطبيعته ناقص ويحتوي على الصمني والكامن». ولهذا فإن كل فكر إنما يحيل على فكر آخر ويعبارة أخرى، فإن الأمر يتعلق بطريقة أخرى للقول إن التعدد هو ما يبرر وجود النص ووجود قراءاته. فكل ما في النص مرتبط بعوالم غير مرتبة هي مبرر النص وصيانة على اشتغاله، فالنص ليس نصا في ذاته، بل هو نص في حدود إحالته الضمنية أو الصريحة على نصوص أخرى. وفي هذه الحالة، فإن التحقق النصي المفرد ليس سوى إمكان ضمن إمكانات أخرى. لذا فهو لا يمكن أن يكون تعيينا لمعرفة معطاة شكل نهائي، بل هو سلسلة من الإحالات، التي قد لا تنتهي، نظريا عند نقطة دلالية بعينها.

إلا أن منطق النص والبحث عن انسجام ممكن للكون النصي يقودان السميز إلى انتفاء دلالة والاحتفاء بها وتفضيلها على دلالات أخرى. فالقول بأن النص يعالج هذا الموضوع أو ذاك لا يعني، قطعاً، رد هذا الكون النصي إلى هذه الثيمة دون غيرها، إنه يشير فقط إلى إمكانية وجود انتفاء سباتي يقود الفعل التأويلي إلى تحيين مسار تأويلي بعينه، ويقوم في الآن نفسه بالدفع بمسارات أخرى إلى الشرايح. فلهذا، فإن المؤول الديناميكي، وهو المؤول المسؤول عن انقلاط الدلالة من عقالها وتطورها في كل الاتجاهات، لا يعين مستوى دلاليا واحدا، كما هو الحال مع المؤول المباشر أو النهائي، بل يحيل على مسارات تأويلية متعددة. فالسيرورة التدلالية، كما يتصورها مورس، ليست فعلا كلياً، بل هي مستويات، والمستويات هي إحالات جبرية بالضرورة، تشير لحظة تحققها إلى وجود تحقيقات أخرى ممكنة.

وهذا ما يفسر، على سبيل المثال، ولع إمبيرتو إيكو - أحد أبرز من نه جمهور الساحتين إلى المردودية التحليلية البالغة المعنى التي نشتمل عليها نظرية بورس - بـ " الموسوعة " و " الانتقاء السياقي " و " السياريوهاات اليبصية " و " الطويك " و " التناظر " و " الفاموس الأساس " . . . ⁽³⁾ وهي كلها مفاهيم تحيل على تسبب الدلالة والحد من علواء التأويل وإدراجه ضمن شروط خاصة فعلى خلاف بعض التمكنيكيين الذين رأوا في بعض إشارات بورس إلى مبدأ " اللانهائية " باعتباره يحيل على تصور يرى في التأويل سيرورة لا تنتهي عند حد بعينه، نظر إيكو إلى السميوز وإلى كل المفاهيم المرتبطة بها باعتبارها مبدأ للعددية لا باعتبارها تأويلا بلا نهاية. فالإحالة عنده، أي سيرورة السميوز، يجب أن تؤدي إلى إغناء نقطة الانطلاق لا إلى نفي أية صلة بها، فالمعرفة التي يستقر عليها التأويل، « بعد تطور كاف للفكر » (بورس)، هي إعاء للمعرفة التي شكلت نقطة انطلاق سيرورة التأويل. وهذا ما لم يدركه هؤلاء، فقد أوحى لهم مبدأ " اللانهائية " أن الأمر يتعلق بتأويل يستند إلى إحالات لا تحكمها أية عاية، وهذا أمر ينسجم تماما مع منطلقاتهم المعكرية فالغاية عندهم من أي تأويل هي هذه الإحالات بالذات، فاللذة لا يمنحها مدلول تنتهي إليه القراءة بعد سلسلة من الإحالات، بل مصدرها هذه الإحالات ذاتها.

ولقد كانت هذه النظرة الصاحية حقا مدخلا لعقد مصالحة لم يكر يتوقعها أحد بين نظريات شديدة التباين في المنظلمات والأهداف والمفاهيم وهكذا وجدنا أنفسنا نتقل من مقترحات

Umberto Eco: Lector in Fabula, éd Grasset 1985, pp 112 et suiv (3)

بورس لكي نشرح مفاهيم كريماس، ونركز في نفس الآن على مفاهيم جماليات التلقي من أجل استيعاب مفهوم السميوز ومردوديته وعلاقته بفعل القراءة. فمعدما كانت هذه النظريات تطلق من تصورات تهدف إلى معالجة قضايا نصية ولدتها زاوية نظر بعينها، أصبح من الممكن النظر إلى هذه الزوايا في تكاملها. ⁽⁴⁾

ولقد حاولنا عرض مجموع هذه القضايا من خلال الفصول الخمسة المكونة لهذا الكتاب. فقدمنا في الفصل الأول تصورا شاملا عن القضايا التي تثيرها نظرية المقولات باعتبارها هي الأساس الذي سيطلق منه بورس لصياغة مجموع تصوراته النظرية الخاصة بالسميات. فدون استيعاب هذا الأساس الفلسفي يصعب فهم الأبعاد الحقيقية للمقترحات النظرية التي يقدمها بورس في هذا الميدان. فهو لا يخفي أن السميات في تصور جزء من المنطق، إن لم تكن مجرد اسم ثان له. ولهذا فالبناء الثلاثي الذي تتميز به العلامة عنده لا يمكن رده إلى رغبة في إضافة عنصر غائب في تصورات أخرى (موسير مثلا) أي المرجع، الذي يطلق عليه بورس الموضوع، بل مصدره مبدأ الثلاثية الذي يحكم إنتاج المعرفة وتداولها. فالإدراك لا يمكن أن يكون نتاج علاقة بين عنصرين، ورد التحرية الإنسانية إلى مبدأ ثنائي هو أمر مخل بنظام هذه التجربة، ولن يؤدي إلا إلى تحديد لحظي ليس له أية قيمة معرفية. ولهذا فإن

(4) انظر كتاب إيكو الأخيرة :

العلامة، وهي مبدأ أساس في تنظيم التجربة الإنسانية ومهم مضمونها، لا يمكن أن تكون إلا ثلاثية.

وهذا ما حاولنا توضيحه في الفصل الثاني من هذا الكتاب. فلقد ناقشنا في هذا الفصل مسألة بناء العلامة في التصور السيميائي الذي جاء به بورس وفي هذا المجال، حددنا من جهة، مكونات العلامة، وقمنا بتعريف كل مكون على حدة، ثم ناقشنا، من جهة ثانية، بعض قصايا التأويل استنادا إلى مبدئين:

- المبدأ الأول هو مبدأ القصور التمثيلي للعلامة. فالعلامة تحتوي على معرفة مزدوجة: ما هو معطى من خلال التحيين المباشر، وما هو صمني من خلال هذا التحيين ذاته. وهذه الإحالة المزدوجة هي ما يجعل من القراءة بحثا دائما عن علاقات غير مرئية من خلال التحقق.

- المبدأ الثاني، هو مبدأ السيموز اللامتناهية. فالمؤول ليس مصرا في الساء العلامي فحسب، بل هو علامة أيضا، وباعتباره كذلك فإنه يحتاج إلى تمثيل جديد يقود إلى خلق علامة جديدة تولد مؤولا جديدا، وهكذا دواليك إلى ما لانهاية. فالمستويات الدلالية التي يشير إليها بورس من خلال تقسيماته العرقية للمؤول ليست شيئا آخر سوى إشارة صريحة إلى الاحتفاء بتعددية دلالية مصدرها الطابع الناقص لكل فكر.

أما الفصل الثالث فقد خصصناه لمناقشة التوزيع الثلاثي للعلامة. وهنا أيضا كانت نظرية المقولات هي السد المعرفي الأساس الذي ارتكز عليه بورس من أجل خلق سلسلة من التنويعات

الخاصة بالعلامة. فكل عنصر من عناصر العلامة قد يتورع على علامات ثلاث، وكل علامة مرتبطة، وهذا هو الأساس، بأثر معنوي معيه، أو بحكم منطقي خاص. وهذا التوزيع يعد، في تصور بورس، استعادة لمجموعة من الظواهر التي قد لا يستطيع محل العلامة في شكله العام استيعابها.

أما في الفصل الرابع فقد حاولنا إثارة مجموعة من القضايا الخاصة بالتأويل كما تظهر من خلال بعض قضايا المؤول. فعلى عكس القائلين بأن العلامة لا يمكن أن تستقر على حال من خلال سلسلة الإحالات التي يتحدث عنها بورس، فإننا حاولنا إثبات أن هذه الحركية تعد إسهاما محيرا لنظرية بورس في مجال التأويل. فاللغة نسق يوضح نفسه بنفسه، والمعنى لا يوجد خارج هذه اللغة، إنه موجود من خلال الإحالات وليس مودعا في محفل متعال لا يدرك سره إلا الله.

وناقشنا في الفصل الخامس، من نفس المنطلقات، أي التأويل وقواعده، قضية القراءة والسميوز وموقع محفل التلقي في تصورات بورس. فسورس يصرح، دون موارد، أن التأويل ممكن حتى وإن غاب الشخص المؤول، فالمؤول (interprétant) ليس في حاجة إلى شخص يقوم بالتأويل. من هذه الزاوية حاولنا أن نربط، انطلاقا من مقرحات إيكو، بين الطابع اللامتناهي للسميوز وبين الطوبيك (وبدل عند إيكو على فرضية سابقة للقراءة). فلا جدال في أن السميوز لا متاهية بحكم طبيعة الفكر الإنساني ذاته وبحكم تعدد حاجات الإنسان وتنوعها، لكنها نهائية في كل واقعة خطابية

مخصصة والواقعة الخطابية تستدعي، كضرورة لإنجاح الدلالات، محملاً للتلقي، وهذا المحفل يستد في قراءاته إلى أسئلة مسبقة توجه القراءة نحو غايات دلالية بعينها.

وفي هذه النقطة كانت خلاصتنا أنه لا وجود لقراءة شاملة تستوعب، من خلال مسار تأويلي واحد، مجمل المعطيات الدلالية التي يحيل عليها النص. إن التأويل انتقاء لمسار تأويلي، وهذا الانتقاء هو وليد الطوبك، أي وليد الفرضيات الأولى الموجهة للقراءة.

وننبه القارئ غير المتخصص إلى أنه بإمكانه أن يقر على الفصل الأول، ويباشر القراءة انطلاقاً من الفصل الثاني. وسيكون بإمكانه العودة من جديد إلى قراءة الفصل الأول. فلهذا الفصل أهمية قصوى في فهم نظرية بورس السيميائية إلا أنه يتميز، كما هي مجموع كتابات بورس، بنوع من التعقيد والتركيب، ويستدعي استحضار مرجعات فكرية متنوعة لفهم المقاصد العميقة لكل مقترح نظري.

وفي ختام هذه المقدمة نشير إلى أن عملنا هذا يدرج ضمن المجهودات التي قدمها ويقدمها الباحثون المغاربة من أجل استنبات وتأصيل هذه الرؤية التحليلية داخل الثقافة العربية، نذكر من هؤلاء، وهم كثيرون، الأستاذ محمد مفتاح (كتابات معروفة حول التأويل والقراءات السيميائية للنصوص) والأستاذ حنون مبارك (كان من الأوائل الذين عرفوا بورس في الثقافة العربية)، وعدد المجيد نوسي.

الفصل الأول نظرية المقولات

السيطرة الثلاثية

لسنا في حاجة إلى تقديم مسهب لكي نثبت للمقاري أن استيعاب التصور البورسي للعلامة يمر عبر استيعاب تصوره لنظرية المقولات. إذ لا يشكل التعريف الذي يقدمه بورس للعلامة سوى الوجه المرئي لقاعدة فلسفية ترى في التجربة الإنسانية كلها كيانا مبطما من خلال مقولات ثلاث هي الأصل والمنطلق في إدراك الكون وإدراك الذات وإنتاج المعرفة وتداولها. فلا حدود تفصل في الظواهر بين المرئي والمستتر، بين الممكن والمتحقق، فكل ما يثبت هذا الكون يشكل وحدة قامة. ومع ذلك فإن التنظيم المفهومي للتجربة الإنسانية يقتضي منا الفصل بين المستويات والمظاهر والمجالات.

فما ينتمي إلى العلامة باعتبارها صيغة تنظيمية مباشرة للتجربة الإنسانية، وما ينتمي إلى المقولات باعتبارها تشكل الروابط الأولية التي تجمع بين مكونات التجربة الإنسانية (أشكال الوجود)، يعود إلى نفس المبدأ: التخلص من المعطيات الحسية باعتبارها كيانات جوفاء لا يمكن أن تتج معرفة، وذلك من أجل صيغتها داخل قوالب

الوجود والمفاهيم . فنحن لا نترك العالم بشكل مباشر ، ولا يمكن أن نقول عنه أي شيء في غياب أداة التوسط التي هي العلامات ، أي في غياب الثنائية ، إحدى المقولات الرئيسية كما سرى ذلك لاحقاً . فلا وجود لفكر بدون علامات ، ولا يمكن أن نفكر خارج ما تقدمه هذه العلامات .

ولقد قدم بورس تصوره من خلال حطاطة ثلاثية يمكن بواسطتها الكشف عن مجمل مكونات التجربة الإنسانية . وكل شيء كان في تصوره ثلاثياً . إن مبدأ الثلاثية هو المبدأ الأساس الذي سيشكل عمق السيرورة المنتجة للإدراك والفهم والتواصل الإنساني ، سواء تعلق الأمر بالمقولات أو تعلق بالبناء الداخلي للعلامة ، أو تعلق بما سيسميه لاحقاً التوزيع الثلاثي للعلامة . ففي كل هذه الحالات ، تنطلق الثلاثية من الرعية (أول) إلى الفعل (ثان) وإلى القانون (ثالث) ، أي من الإحساس إلى الوجود إلى التوسط . وهي السيرورة المزدوجة إلى تحديد إدراك عقلي للكون يستند إلى المفاهيم لا إلى المعطيات الحسية المعزولة .

وسيجني بورس تصوره انطلاقاً من « مسلمة يُطلق عليها البروتوكول الرياضي » ، ووفق هذا البروتوكول يتحدد كل نسق باعتباره كياناً ثلاثياً ولا يمكن أن يكون إلا ثلاثياً⁽¹⁾ . إن هذا البروتوكول يعد أداة منطقية فعالة للقيام بكل عمليات تصنيف الظواهر ، وهو ما يعني أن كل شيء وكل فعل وكل عدد يحتصر في الرقم ثلاثة .

وهكذا، فإن كل الظواهر، وفق هذا البروتوكول، تمثل أمامنا على شكل بناء ثلاثي يستحيل اختصاره في ثنائية ستكون بطبيعتها مختلة بالسق. فنحن لا يمكن أن نتصور العدد "1" دون أن نسقط في نفس الآن ما يحد من امتداده المحتمل (ما يخلق السلسلة)، ولهذا فإن وجود العدد "2" أمر لا بد منه، فهو الذي يحد من الامتداد ويصحه هوية "2". إلا أن الأمر لا يمكن أن يقف عند هذه الحدود، فتصور كيائس مستقلين ومكتفين بذاتهما (ما يعود إلى الوحدة "1" وما ينتمي إلى الثنائية "2") يفترض ثالثا يربط بينهما، ولا يمكن لهذا الثالث أن يكون من طبيعة الأول، كما لا يمكن أن يكون من طبيعة الثاني، إنه ينتمي إلى دائرة مختلفة، إنه التوسط الذي يؤلف ويصنف ويجرد، إنه العدد "3". فالثلاثية ضرورية وكافية في الآن نفسه إنها ضرورية من الناحية المطلقة وكافية من الناحية التداولية. إنها ضرورية من أجل بناء سلسلة لا متناهية من العلاقات، وكافية لأنها تستجيب للحاجات الاقتصادية من خلال التقليل الممكن لكل عدد يفوق العدد "3" إلى تاليفات ثلاثية⁽²⁾.

وتساءل بورس: «لماذا التوقف عند ثلاثة؟ لماذا لا يمكن الاستمرار من أجل الحصول على تصور جديد من خلال "4" أو "5" الخ؟ إن السبب يعود إلى أنه يستحيل أن نكون ثلاثة أصيلة بإدخال تغيير على الزوج دون أن ندخل شيئا من طبيعة مختلفة عن الواحد وعن الزوج ف "4" أو "5" أو أي عدد يفوق ذلك يمكن الحصول عليه من خلال تأليف بسيط لثلاثة. ومن أجل المزيد من الإيضاح، سأبين ذلك من خلال المثال التالي: إن العملية التالية

(2) نفسه ص 32.

'أ' يهب 'ب' هدية لـ 'ج' تحيل على علاقة ثلاثية، وباعتبارها كذلك، يستحيل العودة بها إلى تأليف ثنائي والواقع أن فكرة التأليف ذاتها تستدعي فكرة الثلاثية، ذلك أن التأليف هو شيء لا يكون كذلك إلا من خلال الأجزاء التي يربط بينها. وحتى إذا تركنا هذا الاعتبار جانباً، فإننا لا يمكن أن نقول إن كون 'أ' يهب 'ج' لـ 'ب' من خلال الجمع بينهما في علاقات ثنائية 'أ' و'ب'، و'ب' و'ج' و'ج' و'أ'. فـ 'أ' قد يجعل من 'ب' رجلاً غنياً، و'ب' يمكن أن يتوصل بـ 'ج' و'أ' بفصل 'عن' 'ج' دون أن يكون 'أ' مضطراً المنح 'ج' لـ 'ب'. وفي هذه الحالة لا يجب أن تكون هذه العلاقات الثنائية الثلاث في حالة تعايش فحسب، بل يجب أن تدرك باعتبارها تشكل واقعة واحدة. وهكذا يتضح أننا لا يمكن أن نحلل الثلاثيات من خلال الثنائيات. (3)

ولننظر إلى المسألة من خلال مثال أقل تجريدية من السابق. ويتعلق الأمر بنص سردي يفتح بالملفوظ التالي :

« لم يكن عيسى يتوقع أن هذا اليوم سيأتي »

إن هذا الملفوظ يضعنا أمام وضعية بدئية مفتوحة على كل الاحتمالات. فهذه الوضعية السردية قابلة لاستيعاب كل الممكنات التي يشير إليها الملفوظ. فقد يتعلق الأمر، على سبيل المثال بالتحققات التالية، لم يكن يتصور :

- أنه سيغادر مدينته .

(3) انظر : Textes antichrétiens , présentation et traduction Joseph Chenu, éd Aubier, 1984 , p60 et suiv

- أنه سيجد عملاً

- أنه سيتزوج .

- أن تقوم الثورة في بلاده .

- أن يعتقل .

إلى ما إلى ذلك من الممكنات القابلة للتحقق والتي تقبل بها
العوالم الممكنة المرتبطة بهذا الوصف الإنساني ضمن شروط بعضها .

إن السلسلة إذن مفتوحة ، إلا أن أي تحقق لممكن من
الممكنات السابقة سيقوم بإعلاق السلسلة ، أي يوقف أي تساؤل
يخص الملفوظ المشار إليه . إلا أن هذا التحقق يعني في نفس الآن
إدخال قانون سنتحقق وفقه الأحداث ونحدد مضمونها وطريقة
تحققها . فأن يسافر عيسى فذاك أمر سيعرض تحققاً بعينه ، لا يمكن
أن يفرضه الزواج أو الثورة أو الحصول على وظيفة . وهكذا نلاحظ
أن التجربة في ومنها تختصر في ثلاثة عناصر :

- إمكان (ما تشير إليه الوضعية البدئية ، أي ما يقوله السارد) ،

- ثم التحقق الذي يليه (انتقاء ممكن من الممكنات المشار
إليها) ،

- ثم العانون الذي سيتحكم في الأحداث استقبالا ، وهو قانون
مشتق عن الاختيار الذي سيقوم به السارد من أجل توجيه العجالة
السردية في اتجاه بعينه .

وكما يتضح ذلك من هذا المثال ، فإن إضافة عنصر رابع لا
أهمية له داخل هذه السيرة ، فهو لن يغير من الترابط الذي يجمع

بين الحلقات الثلاث المشكلة للسيرورة . فأن يسافر بالطائرة أو عن طريق البحر ، أو أن يجد عملاً في السريد أو في التعليم ، أو أن يتروح عاملة أو معلمة فتلك عناصر لن تغير من طبيعة التحقق ذاته ، ولن تغير من طبيعة القانون الذي يحكم عناصر التحقق استقبالا صحيح قد تؤدي هذه العناصر إلى تنوعات تخفي التحقق وأساليبه ، ولكنها بالتأكيد لن تمس جوهر الترابط الذي يميز كل سيرورة إدراكية .

وما يصدق على واقعة بحجم هذا الملفوظ يصدق على الوعي الإنساني برمته . والتجربة الإنسانية هي كما هي في حدود ابتهاقها عن هذه السيرورة الثلاثية ، وحصرها لمقتضياتها . فالمقولات ، كما سرى لاحقاً ، ليست مضامين مسقة ومكتفية بذاتها ، بل هي أشكال نقيس من خلالها مظاهر التجربة الإنسانية .

وسيعيد بورس صياغة هذا البروتوكول الرياضي من خلال حدود فيسومولوجية دقيقة خاصة بالإدراك وإنتاج الأفكار وتداولها فكل عدد من الأعداد السابقة يمكن أن يعبر عنه من خلال مقولة تحيل على نمط خاص في الوجود :

- وجود الإمكان التوحي الموضوعي .

- وجود الواقعة الفعلية .

- وجود القانون الذي سيحكم هذه الوقائع استقبالا .

ولهذا فإن بورس كان يطلق على هذه المقولات في مرحلته سابقة أي في مرحلة الستيات والسمعينات : التوعية والواقعة والعلاقة . فالتوعية إحالة على الأول ، والواقعة هو لحظة تجسد

المعطيات الموصوفة في الأول ، أما العلاقة فهي الثالث الذي يربط مفهوميا بين الأول والثاني ، أي بين الأساس والتوحيات وصورتها المحسنة في واقعة بعينها . إلا أنه سيغير من هذه المصطلحية في الثمانيات وسيحدث عن النوعية والعلاقة والتوسط . ولن يتبى استعمال المصطلحات الأولانية والثانيانية إلا في مرحلة متأخرة (حوالي 1885) . (4)

وبعبارة أخرى ، إننا أمام تصور يجعل من الأول مرتبطا بالكنونة ، وهو ما يعني التعبير عن الموجود في ذاته وفي استقلال عن أي شيء آخر ، ويجعل من الثاني معبرا عن الكنونة في علاقتها بشيء آخر . في حين يعهد للثالث القيام بمهمة التوسط الذي يربط الأول بالثاني ضمن علاقة تشير إلى القانون والضرورة والفكر . فبدون ثالث لا يمكن تصور أي شيء ، ذلك أن غياب الثالث معناه أننا سنكون أمام إحالة عرضية وهشة وزائلة لا يمكن أن تنتج إدراكا أو معرفة . والإحالة على كائن مشري من خلال الأول والثاني فقط ، معناه الإحالة على كائن بلا ذاكرة ولا تاريخ ولا مستقل ، إنه لحظي ، مثله في ذلك مثل الحيوانات التي تكتفي بإدراك الأشياء في اللحظة في انفصال عن الزمن الماضي أو الآتي .

إن وجود الإمكان يعبر عنه من خلال مقولة الأولانية (priméité) ، ويعبر عن الوجود الفعلي من خلال مقولة الثانيانية (secondéité) ، أما الثالثانية (tercéité) فهي التعبير الكلي عن الوجود الثالث ، أي عما يشير إلى القانون والضرورة .

ويؤكد بورس أن هذه المقولات قادرة على تزويدنا بكل الوسائل الممكنة للإمساك بالتجربة الإنسانية في كليتها. بل يمكن القول إن التجربة الإنسانية في تشعبها وتنوعها وغناها لا يمكن أن تدرك إلا باعتبارها تدخلا لمستويات ثلاثة هي ما تعبر عنها المقولات السابقة. وبعبارة أخرى، فإن هذه التجربة تدرك باعتبارها نتاجا لمستويات ثلاثة. أول وثان وثالث، أي التجربة في حالة الإمكان، والتجربة المجسدة في وقائع، والتجربة حين يتم استيعابها بصفاتها قانونيا وفكريا وضرورية. وكل عنصر من هذه العناصر الثلاثة يحدد كونا له قوانينه الخاصة التي تحكمه وتحكم علاقته بالعناصر الأخرى. فلا وجود للعنصر خارج الوحدة التي تجمع هذه العناصر. وبعبارة أخرى فإن المقولات تمكنا من رد الكون المتنافر التكوين إلى ضرب من الوحدة، وهذه العملية وحدها هي التي تمكنا من الإمساك ثانياً بالشئ باعتبار انتمائه إلى هذا القسم أو ذاك من الأشياء.

وعلى هذا الأساس، فإن الصياغة النهائية للمحدود الإدراكية، لا يمكنها أن تقف عند ما يقدمه الأول وحده أو ما يتجسد في الثاني وحده، كما لا يمكن تصور ثالث بدون أول يسج علاقة مع ثان. إن الأول إمكان فقط، أما الثاني فهو وجود خالص والربط بينهما لا يمكن أن يؤدي إلى إنتاج إدراك أو خلق تواصل دائم. إن الإدراك والتواصل ممكنان فقط من خلال إدخال عنصر ثالث يحول العلاقة بين الأول والثاني من الطبيعة العرضية واللحظية إلى ما يشد هذه العناصر إلى بعضها البعض من خلال قانون لا فكاك منه.

ويحدد الأول والثاني والثالث المقولات الثلاث السابقة التي يطلق عليها بورس المقولات الفينومينولوجية، أو المقولات المانوروسكوبية و«المانوروسكوبيا هي وصف للظاهر (phaneron)، والظاهر هو المجموع الجماعي الحاضر في الذهن بأية صفة وبأية طريقة دون الاهتمام بتطابقه أو عدم تطابقه مع شيء واقعي» (5). إنه المعطى المباشر والعفوي. ولأن إدراك الذات للعالم الخارجي ليس إدراكا عفويا وبسيطا يتم دون وسائط، فإن موجودات العالم الخارجي تتسلل إلى ذهن الذات المدركة من خلال سيرورة تشتمل، هي نظر بورس، على لحظات ثلاث: «لحظة أولى خالية من أي قصدية فينومينولوجية، لأن خاصية الشعور أو المحسوس التي يتحقق من خلالها «الشعور البسيط» ليست موضوعية ولا ذاتية، لا فاعلة ولا منفعة، وبطبيعة الحال فهي ليست قصدية». وبما أن هذه الحالة الأولى هي من باب الاحتمال فقط - فهي لا يمكن أن تدرك في ذاتها بشكل مطلق - فإنها في ارتباطها بمدات ما، «تستجيب لحضورها الخالص (ما يسميه دان سكوت بـ «الهنا والآن»» (6). وبطبيعة الحال، فإن الأمر لا يتعلق هنا بقصدية ما، فالمحسوس موجود هنا لأنه موجود فقط. إنه موجود في نظر المعارف لا أقل ولا أكثر» (6).

إن الحالة الثالثة وحدها هي التي تحتوي على قصدية، لأنها وحدها تتميز بعمومية مستقلة تجعل منها كيانات يراقب الإمكان

(5) Peirce (C S) Ecrits sur le signe, Ed Seuil, Paris 1978 p 67

(6) Deledalle (Gérard): La philosophie Américaine, éd, Nouveaux horizons 1978, p 38

والتحقق معا. وبعبارة أخرى، وكما سنرى ذلك لاحقا بتفصيل، فإن
الثلاثية هي ما يجعل من المحسوس مدركا إدراكا مفهوما، فهي
غياب المفهوم يستحيل الحديث عن "فهم" أي شيء. ولعل هنا ما
يهمر اهتمام بورس الكبير بالعلامة وتكوينها ودورها في إنتاج الأفكار
وتداولها.

والظاهر أن بورس، كما يبدو من خلال الإشارات الخاصة إلى
"المفاهيم" و"المعطى المحسوس" و"الموجود"، قد استوحى
الكثير من تصورات، في مجال الإدراك القائم على المقولات القبلية
على الأقل، من المقترحات الفلسفية التي جاء بها كانط.

إن كانط أيضا، وفق هذا التصور، كان يرفض شكل قطعي أي
حدس عقلي، فالمكر عبده لا يمكن أن ينمور ويظهر للوجود إلا إذا
تم من خلال مقولات (تصورات في المقال السابق). والشاهد على
ذلك وجود سلسلة المقولات التي نظر إليه كانط باعتبارها كيانات
قبلية نعقل عبرها المعطى الحدسي، أي النظر إليها باعتبارها مبادئ
لفهم الحاصل، أي «تلك المبادئ الأولية التي تحدد إمكانية التجربة
وتجعل منها معرفة تجريبية موضوعية». (7) فهي غياب هذه
المقولات «سنظل الحدوس الحسية» عمياء، وهي غياب الحدوس
الحسية لن تكون المفاهيم سوى كيانات عمياء (8).

وبورس نفسه في النصوص التأسيسية الأولى (النصوص التي
ظهرت سنوات 1866 - 1867 - 1868) كان يستعمل مجموعة من

(7) زكريا إبراهيم - كانط أو الفلسفة النقدية، دار مصر للطباعة، ص 62

(8) نفسه

المعاهيم القريبة جدا من تلك التي شاع استعمالها عند كانط . وعلى سبيل المثال ، فإنه يفتح مقالته الشهيرة : حول لائحة جديدة من المقولات التي كتبها سنة 1867 وكان عمره آنذاك 28 سنة بالعبارة التالية . * إن هذه المقالة تستند إلى نظرية قائمة الذات تتحدد وفقها وطيمة التصورات (conceptions) في رد الانطباعات المحسوسة إلى ضرب من الوحدة . فصلاحيية هذه التصورات تكمن ، وفق هذه النظرية ، في أن إرجاع مصموم الوعي إلى ضرب من الوحدة لا يمكن أن يتم دون الاستناد إلى هذه التصورات ⁽⁹⁾ . إن هذه الصيغة هي استعادة واضحة لمعاهيم كانطية خاصة بالإدراك وإنتاج المعرفة . فلقد استعمل كلمة 'التصورات' التي كانت تعني عنده المقولات .

إلا أن التشابه يقف عند هذا الحد ولا يمكن أن يتجاوز إلى أبعد من تحديد مجموعة من المقولات نفث وظيفتها عند حدود إنتاج معرفة عقلية . فمقولات كانط مرتبطة بسلسلة من الأحكام المؤدية إلى إنتاج إدراك حقيقي ، تماما كما كانت مقولات أرسطو مرتبطة بتحديد الكينونة .

فسيما استعان أرسطو بهذه المقولات من أجل الوصول إلى تحديد جوهر الكينونة ، واستعان كانط بمقولاته المبثقة عن الأحكام لكي يصل إلى فصل المحسوس عن الفكر ، (تمييزه بين الأحكام التحليلية السابعة عن التجربة والأحكام التركيبية المنشقة عن التجربة) ⁽¹⁰⁾ ، فإن بورس انطلق من نفس الإشكال الإدراكي ، إلا أنه

(9) C. S. Peirce Textes fondamentaux de Sémiotique , tra Bernhe Fouchet
Axelsen et Clara Foz, éd Méridiens Klincksieck , 1987

(10) Kant Critique de la raison pure, éd Flammarion, 1978, p 63 et suiv

لم ير في ' مقولاته ' سوى أشكال تشير إلى كيانات وجودية مرتبطة فيما بينها وخالقة للوعي في كليته . فالتركيب لا يمكن أن يتم ، كما تصور ذلك كانط ، من خلال الحدس . « فالسؤال الشهير الذي طرحه كانط في نهاية القرن الثامن عشر عن كيفية الحصول على تفكير تركيبى قبلي ، كان يجب ، في تصور بورس ، أن يكون مسبوقا بسؤال أحر أكثر أهمية : كيف يمكن الحديث عن التركيب ذاته ؟ وكيف يمكن رد التعدد إلى ضرب من الوحدة ؟ وعن هذا السؤال يجيب بورس . إن ذلك ممكن فقط من خلال التمثيل . فالكيونة معناها ما يمكن تمثيله ، والتمثيل في تصور بورس تابع منظم » (11) .

ولهذا كان من الضروري الاستعانة بأدوات أخرى ، وكان من الضروري أيضا إعادة صياغة الأحكام الخاصة بالتجربة وحدودها . وسيعثر بورس على هذه الأدوات في النموذج الذي يقدمه منطق العلاقات الذي قام هو نفسه بإعادة صياغة حدوده . « فالوحدة التي تعود إليها الانطاعات من خلال الإدراك هي وحدة القضية » (12) .

وفي هذا المجال ، فإن منطق العلاقات يميز داخل القضية بين علاقة أحادية : " هو رجل " ، وبين علاقة ثنائية : " . . . يحب . . . " ، وبين علاقة ثلاثية : " . . . يعطي . . . ل . . . " . « وعن هذا البناء المنطقي انبثقت مقولات بورس الفينومولوجية الثلاث . « فالأولانية هي مقولة الوعي التي تتميز بكونها تمتلك عمومية الممكن ، والثانيانية هي مقولة الوجود ، وهي

Savim (David) La Sémiotique de Peirce , Langages 58 p 10 - 11 (11)

Deledalle (Gérard) : Théorie et pratique du signe, éd Puyot, 1979, p 34 - 35 (12)

العمل الذي يتم داخل خصوصية الها والآن، أما الثانية فهي مقولة الفكر والتوسط⁽¹³⁾. ففي الحالة الأولى تكفي الإحالة بتحديد كيان منفصل عن أي شيء، فهذا الكيان محدد من خلال خصائصه الذاتية فقط، فهو منفصل عن أي شيء آخر. أما في الحالة الثانية، والإحالة تتم من خلال ربط الذات بموضوعها، أو ربط الذات بالمحمول، فالشيء لا يتحدد من خلال خصائصه الذاتية، بل بتحقيقه في شيء آخر، فهو كما هو في علاقته بشيء يحيط به. أما في الحالة الثالثة، فإن الإحالة تستند في وجودها إلى إيراد ما يتوسط كيانين.

واستنادا إلى هذا يمكن فهم البناء الثلاثي للعلامة نفسها. فبورس لا يتصور العلامة خارج هذه التحديدات المطلقة. «فالعلامة هي أول عندما تحيل على نفسها، وهي ثان عندما تحيل على بؤرة "الها والآن" التي يتحرك داخلها الموضوع، وهي ثالث عندما تحيل على مؤولها»⁽¹⁴⁾. وهذا أمر طبيعي، فالمنطق عند بورس ليس سوى تسمية أخرى للسيميائيات التي تشكل في اعتقاده النظرية الشكلية والضرورية لدراسة العلامات

تعريف المقولات

إن المقولات الثلاث تحدد، كما أسلفنا، ثلاثة أساط للوجود: «وجود الإمكان النوعي الموضوعي، ووجود الواقعة الفعلية، ووجود القاتون الذي سيحكم هذه الوقائع استقبالا»⁽¹⁵⁾.

(13) نفسه ص 35

(14) نفسه ص 35

(15) Peirce (C S) - Ecrits sur le signe . p 69

ويطبيعة الحال ، فإن الأمر لا يتعلق بأكوان منفصلة عن بعضها البعض لكل منها وجوده المستقل ، بل الأمر يعود إلى كون واحد مسطور إليه من زوايا ثلاث . فكل زاوية تمنح هذا الكون مظهراً خاصاً فمن خلال الأول يتبدى الوجود بأعسبارة نوعيات وأحاسيس ، أما في الثاني فيتخذ شكل مجموعة من الوقائع المتحققة فعلياً ، أما مع الثالث ، فإن الوجود يتحول إلى سلسلة من القوانين والقواعد ، أي يصبح مجموعة من المفاهيم التي من خلالها يعقل الكون ونتمثله كفكر وضرورة وقانون .

فما تحوي هذه المقولات ؟ وما هي العلاقات الرابطة بينها ؟ وكيف تتحول هذه المفاهيم إلى أدوات لاشتغال العقل وإنتاج الأحكام والمفاهيم ؟

الأولانية

تحليل الأولانية في تصور بورس على " الوجود النوعي الموصوعي " ، ذلك الوجود الذي يكمن في وجود الشيء في ذاته خارج أي سياق أو تحقق . وبعبارة أخرى ، فإن الأولانية تحيل على سلسلة من الأحاسيس والوعيات المنظور إليها هي ذاتها . إنها تحديد للكيونة في طابعها المباشر دون وسائط أو تجسد أو علاقة مع أي شيء آخر . ويعرفها بورس بأنها « سمط في الوجود يتحدد في كون شيء ما هو كما هو إيجابياً دون اعتبار لشيء آخر . ولا يمكن أن يكون هذا الشيء إلا إمكاناً » (16) . فالأول في هذه الحالة يحيل على الشيء في ذاته ، معصوفاً عن محيطه وعن سياقه المباشر وغير

الماشعر ويرد بورس مضمون هذه المقولة إلى الأحاسيس كالآلم والحواف والفرح والحرن، وإلى النوعيات كالأحمر والأحضر والمر والحشن واللين.

فهذه الأحاسيس وهذه النوعيات هي كما هي في ذاتها بعيدا عن أي تحقق ولا تتحدد إلا من خلال خصائصها الذاتية دون التساؤل عن تجسدها أو عدم تجسدها في شيء آخر. « فالإحساس هو نوع من الوعي الذي لا يستدعي أي تحليل، كما لا يستدعي أية مقارنة ولا أية سيرورة، كما لا يتجسد لا كليا ولا جزئيا في فعل يتميز من خلاله هذا الحقل من الوعي أو ذاك » (17).

فما هي النوعية وما هو مضمونها؟ عن هذا السؤال يجيب بورس « هناك نظرة يبدو من خلالها عالم الظواهر وكأنه مصنوع فقط من النوعيات. وما هي هذه النظرة؟ إنها تلك التي نعتقها عندما نهتم بكل عنصر كما يبدو في ذاته، ومن خلال إمكانياته الخاصة دونما اهتمام بأية روابط أخرى » (18). فإذا تأملنا أي شيء في ذاته وهي انفصال تام عن أي شيء آخر سيتضح لنا أن هذا الشيء لا يمكن أن يشبه أي شيء آخر. فالإحساس هو كما هو قبل أن يفكر في صبه في واقعة أو تجسده في فعل يكشف عن كامل أوجهه ولهذا فإن بورس يرى في النوعية « العنصر الأحادي للكون فكل شيء مهما كان نعتقه وتنافره يمتلك نوعيته الأصلية » (19).

Peuce (C S): Ecrits sur le signe , p 84 (17)

Peuce (C S): Ecrits sur le signe , p 91 (18)

Peuce (C S): Ecrits sur le signe , p 92 (19)

وعلى هذا الأساس تتحدد الأولانية كمقولة للوجود الاحتمالي، ولا يمكن أن تشتغل إلا باعتبارها ما يحيل على الاحتمال والإمكان. فتجسدها في شيء آخر غير ذاتها يحيلنا على شيء آخر، أي على نمط آخر للوجود هو بالضرورة تجاوز لحدودها ومعطياتها

إن الأولانية تتميز بالعمومية، ولهذا فإن الإبهام والغموض والالتباس سمات خاصة بها، فهي الكلية التي لا تحصر في الدهن من خلال أجزائها لا من خلال مظاهرها، إنها الأحاسيس خارج أي تجسد، وهي النوعيات في انفصال عن الوقائع التي تخبر عنها وتمنحها هوية.

إن الأولانية مقولة توجد خارج أي تحديد، فلا زمان هناك ولا مكان ولا تمييز ولا تحوم ولا أجراء. «فكل شيء يمكن أن يعزل وي طرح كأول داخل سلسلة...» [والأول معناه بداية جديدة وأصل، فلا شيء يحدد الأول بشكل مسبق، فلنفترض أن (5) هي أول فمادام سيكون الثاني؟ إنه غير محدد بعد؛ قد يكون (6) وقد يكون (4) وقد يكون (10) أو ما شئتكم، فالأول حر ولا محدد. إن الأولانية هي مقولة البداية والمجدة والحرية والإمكان واللاتحديد» (20).

إن الأولانية هي الإحساس قبل أن تكون هناك ذات تحس، وهي النوعيات قبل أن يكون هناك شيء تتجسد من خلاله هذه النوعيات. «فمادامت الأشياء لا تؤثر في بعضها البعض فلا فائدة من القول إنها موجودة، إلا إذا كان هذا القول يعني أنها موجودة

لذاتها»⁽²¹⁾. إنها الاحتمال فحسب، والاحتمال نمط في الوجود لا يرتبط بحالة ولا يعود إلى واقعة بعينها، بل يشير إلى الانفتاح الدائم على أشكال للتحقق أو على خيالات لا تنتهي. فهل بإمكاننا أن نوصف الأحمر؟ وهل يمكن أن نحدد كنه السعادة والمرح والألم؟ إن الأحمر في ذاته لا يمكن أن يوصف، فقبل أن يكون هناك شيء أحمر، لم يكن الأحمر سوى نوعية لا وجود لها إلا في ذاتها، فالنوعية ليست مرتبطة في كينونتها بكائن ما، سواء مثل ذلك على شكل معنى أو على شكل فكر. وهي أيضا ليست شيئا مرتبطا في كينونته بشيء مادي يمتلكه. وأن تكون النوعية مرتبطة بالمعنى فذلك هو الخطأ الذي ارتكبه الممهورميون، وأن ترد إلى الذات التي تتحقق من خلالها فذلك هو خطأ الإسمايين.

إن النوعية هي إمكان مجرد وخطأ الدراستين السابقتين يكمن في اعتقادهما أن المحتمل والكاس لا يمكن أن يوجد إلا من خلال واقعة تجسده»⁽²²⁾. لذا يحق لنا القول إن «النوعية خالدة ومستقلة عن الزمان وعن كل أشكال التحقق»⁽²³⁾ وهو أمر يصدق أيضا على أحاسيس كالفرح والسعادة والألم والغضب، فتلك أحاسيس عامة لا قيمة لها خارج حصائصها الذاتية. «فالإحساس يجب أن يكون متطابقا مع نسخة من نفسه، والأمريشعلق بطريقة أخرى للقول إن كل إحساس هو نوعية للوعي المباشر»⁽²⁴⁾.

(21) Peirce (C S): Ecrits sur le signe, p. 70

(22) Peirce (C S): Ecrits sur le signe, p. 89

(23) Peirce (C S): Ecrits sur le signe

والكلام لودولف في التعليق الذي حص به هذه الكتابات من 207

(24) Peirce (C S): Ecrits sur le signe, Ed Seuil Paris 1978 p. 85

ويعتقد دولودال أن الأولانية شبيهة بـ " العاطفة البسيطة " التي قال بها مان دو بيران ، ورغم ذلك فإن دولودال يلاحظ أن العرق شاسع بينهما . فما كان يشغل بال دو بيران هو تحديد طبيعة الأنا ، في حين كان بورس منشغلا بتحديد طبيعة الظاهر . (25) وبورس لا يكثرث للمدات التي تقوم بالتجسيد ، فما هو أساس هو التجسيد ذاته تماما كما هو الشأن مع تصوره للمؤول ، والتأويل ممكن حتى وإن غابت الذات التي تقوم بعملية التأويل .

هذا السبب ، وإن المعطيات الموصوفة داخل الأولانية - محكم احتمالياتها - قد تتحقق وقد لا تتحقق ، وقد تتجسد في واقعة ما وقد تظل احتمالا إلى ما لا نهاية ، فهي قابلة لأن تستمر في الحياة باعتبارها مجرد إمكان يشير إلى إمكانية التحقق . إن هذا لا يمس جوهرها ولا يغير من كنهها . إنها تذكرنا بالمتخيل الذي يرفض أن ينحني لقوانين الزمان والمكان ، فهو منفلت من الجاذبية ومن إمكانية الفرق ، لذلك فإن الكائن " يطير ويمشي على الماء بقدميه ويكبر ويشبح ثم يعود صيا " . وقد تقوم الثالثة بقتله ، إلا أنه قد يبعث من رماده كي يعرو الثانية من جديد ويغنيها . (26) ويلاحظ بورس أننا

(25) Peirce (C S) : Ecrits sur le signe , Ed Seuil Paris 1978

انظر التعليق الذي خص به هذه الكتابات من 206

(26) لقد قامت بيكول إفرات وصمت بدراسة عقدت من خلالها مقارنة بين المقولات الثلاث ، وبين المحلل الواقعي والرمزي واعتبرت معها أن تلك المقولات هي صياغة جديدة للعناصر الثلاثة المشار إليها

انظر Evreart Demedit (Nicole): Le processus interprétatif

Peirce, Ed Mardagua 1990 Introduction à la sémiotique de C S

الفصل الرابع . لقد عدنا ترجمة عربية لهذا المعال في علامات (المعروف) العدد الثالث ، سنة 1995

«نعيش في عالمين : عالم الوقائع وعالم المتخيل (. .) وبطلق على العالم المتخيل العالم الداخلي ، أما عالم الوقائع فنطلق عليه العالم الخارجي» (27)

إن الأولانية مقولة عامة ، إلا أن عموميتها ، كما سنرى في المقرة الموالية ، ليست من طبيعة قانونية فكرية كما هو الشأن مع الثالثة ، بل هي من طبيعة الهلامي والسديمي الذي لا يتحدد من خلال أجزائه المكونة . فالمتصل لا يمكن أن يكون كيانا متحققا ، إلا أنه قد يعذي كل أشكال التحقق الممكنة . لذلك فإن فكرة الأول المطلق تتركز على أساس معرفي يقول بأننا لا يمكن أن نفكر في هذا الأول من خلال أجزائه

وإذا غادرنا الظواهر الطبيعية وعدنا إلى اللسان مجسدا في سلسلة لامتناهية من الكلمات وأخذنا كلمة " سيارة " كمثال وحاولنا الاهتمام بهذه الكلمة في ذاتها (دون الاهتمام بما تحيل عليه ، ولا على ماذا تدل) ، أي باعتبارها متوالية صوتية تجمع ، توزيعيا ، بين سلسلة من الأصوات المنطوقة بهذه الطريقة أو تلك ، فإننا سيكون أمام نوعيات أو أحاسيس غير محددة ولا تحيل على أي شيء غير كونها أصواتا أي قبل أن تتجسد كدال يستدعي بالضرورة مدلول (أو ماثولا يحيل على موضوع في اصطلاح بوردس) . فإذا نطقنا بهذه الكلمة أمام شخص لم يسبق له أن سمع هذه الكلمة ولا رأى سيارة ، فإنه بالتأكد لن يدرك أي مضمون فكري ، ولن يتجاوز ذهنه حدود سلسلة من الأحاسيس قد تثيرها لديه طريقة النطق أو طريقة التأليف

بين مجموعة الحروف التي تكون كلمة "سيارة" . وستظل الكلمة في ذهنه مجرد إمكان لا غير .

وبناء عليه ، فإن الطابع الكلي واللامحدد للأولانية هو الذي يجعل من وجودها وجوداً هشاً ، إذ إن وعي معطياتها سيؤدي إلى احتمائها «مقولة الأولانية هشة لدرجة أن أي تماس معها تدعير لها»⁽²⁸⁾ : «إنني أشعر بالأم لا أستطيع تحديد كنهه» (إحساس عامض وغير محدد) لكنني بمجرد ما أتبين طبيعة هذا الألم ، فإنني أكون قد تجاوزت الأولانية لكي أدخل إلى نظام مقولة أخرى لها علاقة بالوجود الفعلي ، لا بالمحتمل والممكن فـ "الظاهر" لا يبدو من خلال الأحاسيس أو النوعيات فحسب ، «بالإضافة إلى نوعية الأشياء ، هناك الأشياء ذاتها باعتبارها موجودة فعلياً في انفصال عنا ، فحين لا نكف عن الاصطدام بها»⁽²⁹⁾ . إن الظاهر في هذه الحالة يبدو من خلال مقولة ثانية ، وهي مقولة من طبيعة مختلفة ومحددة لوجود آخر ، ويطلق بورس على هذه المقولة الثانية . فما هي الثانية وما هو مضمونها وطبيعتها وما هي طرق اشتغالها وما هي علاقتها بالمقولة السابقة والمقولة اللاحقة ؟

الثانية

إن الاحتمال هو مجرد احتمال ، والارتكار على الاحتمال وحده لن يوصلنا إلى أي شيء . فلا يمكن للأول أن يكون أساساً

Peirce (C S) . Ecrits sur le signe , Ed Seuil Paris 1987 , p 73 74 (28)

Peirce Textes antiscartésiens , présentation et traduction Joseph Chenu , (29) 61 Aubier, 1984, p 77.

لتحربة فعلية، كما لا يمكن أن نتبين من خلاله أي شيء. فلاند إدن من تصور عنصر ثان يقوم بنقل الأحاسيس من وضعها الأصلي الأولي، إلى ما يجعل منها عنصرا داخل علاقة مع شيء آخر وهذه العلاقة هي وحدها القادرة على الانزياح عن الخصائص الداتية للشيء والولوج إلى دائرة العلاقة مع شيء آخر. فالشيء الذي لا يتقابل مع شيء آخر لا وجود له. لهذا فإن الكيونة هي نمط في الوجود يتحدد من خلال تقابله مع شيء ليس هو. «فالقول بأن هذه الطاولة موجودة، معناه القول إنها صلبة وثقيلة وتحدث أصواتا وبعبارة أخرى، إنها تنتج أثارا تعكس مباشرة على الحواس، وتحدث أثارا من طبيعة فزيائية صرفة.» (30)

ولهذا فإننا في انتقالنا من الأولانية إلى الثانية نكون في واقع الأمر بصدد الخروج من دائرة المنصل المغلت من أي تحديد إلى الوجود العيني المحدد من خلال وقائع انطلاقا من هذه الملاحظة، فإن الثانية كما يعرفها بورس هي «نمط وجود الشيء كما هو في علاقته بشأن دونما اعتبار لثالث. إنها تعين وجود الواقعة الفردية» (31)

إننا مع الثانية نشغل من الإمكان إلى التحقق، أي نلغ دائرة الوجود وبعبارة أخرى، إننا نقوم بصب المعطيات الموصوفة في الأولانية داخل وقائع محددة من خلال نقلها من طابعها الاحتمالي

(30) Peirce (C S) Ecrits sur le signe, Ed Seuil Paris 1978

انظر التعليق الذي خص به هذه الكتابات من 209

(31) Capurion (Enrico) Action du signe Ed Louvain-Lanerve 1984 p 17

إلى طائعتها المتحقق فالأولانية كنمط للوجود لا تستطيع وحدها، أي من خلال إمكاناتها الداتية، أن تحدد أي شيء، فهي الاحتمال فقط. لذا، فإنه إذا كانت هذه المقولة (الأولانية) هي مقولة البداية والجدلة، أي أنها أول داخل السلسلة⁽³²⁾، فإن الثانية تحدد من حرية هذه السلسلة. ذلك أن تحديد الثاني معناه تقليص للإمكان وتحويله إلى تحقق عيني. «فالعنصر الثاني داخل السلسلة يقوم بتحديد الأول، إنه يضع حدودا ويخلق بابا. فالأول وحده ليس سوى إمكان داخل السلسلة، أما الثاني فيحسب السلسلة، إنه يدخل الوجود»⁽³³⁾.

لقد سبق أن رأينا أن كل شيء يمكن أن يعزل وينظر إليه باعتبارها أول داخل سلسلة، فإذا كان الأول هو الرقم 5، فإن الثاني غير محدد، ويمكن للوضع أن يستمر على هذه الحال إلى ما لا نهاية. إلا أننا إذا قلنا بأن الثاني هو الرقم 10، فإننا نكون قد قمنا بإغلاق السلسلة، ووضعنا حدا للاحتمال لكي نتقل إلى التحقق، ونكون في نفس الآن، كما سنرى ذلك في الفقرة الموالية، قد سربنا القانون الذي سيحكم هذه الوقائع استقبالا. إن الثاني هو إيقاف لداثرة الاحتمال، لأننا ندخل عنصرا نقيضا يتجلى في الوجود.

إن دخول الوجود معناه دخول الفضاء ودخول الزمان، ومعناه أيضا الاتصال من المتصل إلى اللامتصل. فمن العموص واللس والإبهام نتقل إلى الوجود الفعلي، أي نتعل إلى وجود تكون فيه

Savan (David) : La Sémiotique de Peirce, Langages 58 p 11 (32)

(33) ص 11

الأحاسيس والتوحيات مجسدة في وقائع محددة . فلا يمكن للحدث أن يكون مجرد احتمال أو مجرد إحساس ، إن الحدث تحيين مرئي ، ولقد تساءل بورس قائلا : « إذا سألتكم أين يكمن تحيين حدث ما ، فستردون قائلين : إنه وقع في مكان معين وزمان معين . إن تحديد المكان والزمان يتضمن كل علاقات هذا الحدث مع الموجودات الأخرى » . (34)

وعلى هذا الأساس ، فإن الواقعة (الحدث) هي التحقق العملي الذي يتم من خلال الحدود المحددة لأي وجود ، والمقصود بهذه الحدود . الزمان والمكان ، « فالأشياء لا تدرك إلا متحيرة في المكان ومتعاقبة في الزمان » . (35)

فإذا كان الأحمر في ذاته غير قابل للوصف ، وإذا كان الألم والسعادة غير قابلين للتحديد أيضا من خلال خصائصهما الذاتية ، فإن الانتقال إلى الثانيانية معناه نقل هذه الأحاسيس وهذه التوحيات من طابع اللامحدد إلى الطابع المحدد صمم وقائع قابلة للإدراك كوجود عيني . فالأحمر قبل وجود شيء أحمر لم يكن سوى إمكان ، لكنه وقد تجسد في ' ثوب أحمر ' أو ' علم أحمر ' ، فإنه سيتحول من الإمكان إلى الوجود القابل للمعانية .

وإذا عدنا إلى المثال السابق (مثال السبارة) ، ونظرنا إلى السبارة من زاوية الثانيانية ، فإننا نكون أمام نمط جديد للوجود فالسبارة التي لم تكن سوى أصوات مدرجة داخل سلسلة مكتوبة أو مطبوعة

(34) Peirce (C S) Ecrits sur le signe , Ed Seuil Paris 1987, p. 69

(35) إبراهيم دكريرا كاتط ص 56

ستحول إلى شيء يمكن معاينته لا باعتباره نوعية أو إحساسا، بل باعتباره وجودا. ومتكون السيارة في الوجود هي تحقيقا للسيارة كإمكان (أصوات: أحاسيس أو نوعيات). فالشخص الذي لم يسبق له أن سمع بهذه الكلمة، قد يشعر بمجموعة من الأحاسيس، إلا أنه لن يدرك أي شيء أبعد من هذه الأحاسيس، فهو قد يصرف نظره عن الأمر كله، أو قد يسأل عن فحوى السيارة، حينها يمكن أن نأخذ بيده لنريه سيارة فعلية. وفي هذه الحالة فإننا نكون قد ربطنا بين كلمة "سيارة" وبين شيء موجود فعلا. وبعبارة أخرى نكون قد أفرغنا معطيات الأولانية داخل واقعة فعلية. فما كان مجرد أحاسيس سيتحول إلى وجود فعلي.

انطلاقا مما سبق، فإن الثانية هي مقولة «الواقعي والفردى، إنها مقولة التجربة والواقعة والوجود: وجود الشيء ووجود الحدث، وجود المعركة والوضعية والحلم المدرك. إنها مقولة "الها والآن"، وجود الشيء الذي حدث في زمان ومكان معينين. إنها مقولة القوة العيفة ومقولة الجهد الذي يصطدم بمقاومة، إنها مقولة الفعل ورد الفعل»⁽³⁶⁾. إن الثانية، من هذه الزاوية بالذات هي الشرط الأساسي لتحويل الإمكان واللاتحديد (اللاعصوي واللامحدد) إلى حقائق مجسدة داخل حقل التجربة الإنسانية.

فهل هذه المقولة كافية وحدها لإنتاج دلالة وتحديد إدراك، وهل هي كافية للحديث عن قانون وعن قاعدة؟ وبعبارة أخرى، هل

Everet-Desmedt (Nicole): Le processus interprétatif Introduction à la (36) sémiotique de C. S. Peirce, Ed Mardaga 1990 p 35

بامتنطاعة الإنسان التخلص من مقتضيات "الأنا" و "الها" و "الآن" اعتمادا فقط على الثانية، أو اعتمادا على المرجح بين الأول والثاني ؟ .

كلا «تحديد الإنسان من خلال الأولانية أو من خلال الثانية معناه ألا إمكان للحديث عن قانون ولا عن ضرورة» (37) فالأولانية تشير إلى الإمكان فقط، والثانية إلى التجربة الصافية فقط . هذه الأشياء هـا لا أقل ولا أكثر، أي أننا لازلنا في مرحلة قائمة على عملية ربط عرضي بين إمكان ووجود .

وبناء عليه لابد من دخول عنصر ثالث، عنصر يقوم بتبرير العلاقة الرابطة بين الأول والثاني «فحين لا نستطيع أن ندرك مضامين فكرنا انطلاقا من الأولانية والثانية فقط فكل ما يتم إيجاره يعود إلى الثانية، أما الحاضر المباشر، إذا أمكن الإمساك به، فلن يكون له سوى طابع الأولانية» . (38) . إن العنصر الثالث الذي يجمع بين الأول والثاني سيقوم بالكشف عن القانون الذي يجعل من تحقق الإمكان داخل الوجود أمرا ممكنا ومعقولا . إن الأمر يتعلق بما يطلق عليه بورس الثانية، أي نظام الرمزية الذي يمكسنا من التخلص من مقتضيات التجربة الصافية، لا متلاك العالم فكريا .

الثانية

إننا نعيش داخل عالم رمزي، فحين نتبادل أشياءنا وكلماتنا وسلوكنا استنادا إلى تصورات رمزية . فالاحتكاك المباشر مع الواقع

(37) Savat معه ص 11

(38) Peirce (C S) Ecrits sur le signe , Ed Seuil Paris 1978 p 98

محرد وهم، أو هو كذلك بالسبب للعمامة أو إلى ذوي الأذهان البسيطة. فالإنسان لا يلج العالم الخارجي دون وسائط، إنه يجعل ذلك من خلال اللغة ومن خلال الدين والأسطورة والخرافة، فكل هذه " الأشكال الإدراكية " هي وسائط يلج الإنسان من خلالها إلى عالم الأشياء. إن فكرة التوسط بين الإنسان وعالمه هي الأساس الذي يجعل من كل شيء وكل سلوك بفرغ داخل قوالب رمزية لكي يتم استيعابه باعتباره مجموعة من المعاني. فتتظيم التجربة الإنسانية يتم دائما بعيدا عن الإزعاجات التي تفرضها " الهما " و " الآن " .

وعلى هذا الأساس، فإن الإمساك بالبعد الرمزي للتجربة الإنسانية هو وحده الكفيل بإنتاج المعرفة وتداولها، وتلك هي الوظيفة الأساس التي تقوم بها الثانية. فالسلسلة تتوقف عند الثاني، لكنها لا تكتسب طابع القانون إلا مع دخول الثالث، فالأولانية تحيل على الثانية عبر الثانية، والمقولة الأخيرة هي ما يبرر العلاقة بين الأول والثاني ويمتدحها بعدا فكريا. «فالقول بأن سقراط إنسان معناه القول إنه إنسان يمتلك مجموع الخصائص التي تسد عادة إلى الفصيلة البشرية، والقول بأن الماس صلب، معناه القول مثلا إننا لا يمكن أن نحدث فيه خدوشا من خلال آلة ما مهما تعددت المحاولات من أجل فعل ذلك » .⁽³⁹⁾

يمكر القول إذن إن الثانية هي الشرط الضروري لإنتاج القانون والضرورة والفكر والدلالة. فلا يمكن للأول أن يحيل على

Peirce Textes anticepticiens , présentation et traduction Joseph Chenu , (39)
éd Aubier, 1984 , p 79 - 80

الثاني إلا من خلال وجود عنصر ثالث يربط بينهما ويضعهما في علاقة. وعلى هذا الأساس، فإن الثالثة هي مقولة التوسط بامتياز. فكل ما يتوسط شيئين ويقوم بالربط بينهما يشتغل كالثالث. والتوسط معناه جعل الأول يحيل على الثاني وفق قاعدة تشتغل كقانون. فالفقير بأن (5) هي الأول وأن (10) هي الثاني معناه إرساء قانون يجعل الانتقال من الأول إلى الثاني يتبع سبيلا (قاعدة) يحدد نمط اشتغال السلسلة كلها. فالفقير هو الطريقة التي يستطيع من خلالها المستقبل الذي لا نهاية له الاستمرار في الوجود⁽⁴⁰⁾.

إن العادة التي تسمح لنا بتأويل سلوك معين، والقانون الذي يجعل من الحديد يتمدد بالحر، والمكر الذي يسمح لنا بالربط بين 'السيارة كأصوات والسيارة كوجود حقيقي'، كل هذه العناصر تشتغل كالثالث، أي كالثانية تسمح لنا بالتحلص من مقتضيات الوجود العيني والتعليق بعيدا عنه، أي خلق عالم تجريدي يفسر به الواقعي والمتخيل على السواء. فإذا كانت الثانية هي مقولة الفردي، فإن الثالثة والأولانية هما مقولتنا العام إلا أن عمومية الأولانية هي من نظام الممكن، في حين أن عمومية الثالثة هي من نظام القانون والقاعدة⁽⁴¹⁾.

وللمريد من التوضيح، سنحيل من جديد على المثال السابق. لقد قلنا إن الشخص الذي لم يسمع كلمة سيارة قد لا يحتفظ من هذه الكلمة سوى بأصوات تشير لديه أحاسيس معينة. إلا أننا إذا وضعناه

Pierce (C S) Ecrits sur le signe , Ed Seuil Paris, p 98 (40)

Everaert-Desmedt (Nicole) Le processus interprétatif Introduction à (41)
la sémiotique de C S Pierce , Ed Mardaga 1990 p 36.

أمام سيارة فستكون حينها قد ربطنا بين اسم وشيء موجود فعلا، أو ربطنا بين مجموعة من الأحاسيس وبين ما يجسدها في واقعة فعلية. فهل هذا الربط كاف لكي نتحدث عن فكر أو قانون أو ضرورة؟ بالطبع لا، فهذا الربط يتميز بالعرضية، فهو مؤقت ولا يستند إلى أي قانون. فهذا الشيء هنا فقط لا أقل ولا أكثر. وبعبارة أخرى، إن الأمر يتعلق بتجربة صافية خالية من أية دلالة. فقد ينصرف صاحب السيارة ويعود الرجل إلى جبله أو صحرائه وسينسى الكلمة والسيارة معا. لماذا هذا؟ النسيان؟ لقد حدث ذلك لأننا لم نضع بين يديه القانون الذي يجعله "يتذكر" السيارة. وهذا القانون هو العكر الذي يجعل كل الأشياء المشابهة تصدق عليها كلمة سيارة. وهذا القانون هو التعريف الذي قد يعطى للسيارة. فهي آلة ميكانيكية تحتاج إلى الوقود للاشتغال وتسير على أربع عجلات وتستعمل للثقل... حينها سيتخلص الرجل من "السخة" الموجودة أمامه ليملك النموذج الذي يستوعب داخله كل النسخ فعندما يملك هذا القانون، فإن كل السيارات، أي كل الآلات التي تستجيب لمعاصر هذا التعريف ستكون عنده سيارة دونما اعتبار لنوع السيارة أو هيئتها أو تاريخ صنعها.

وبناء عليه، فإن الثالثة هي أداة الإنسان في التخلص من التحريم الفردية وإسقاط السنن كتكثيف لمجموع التجارب الفردية. ذلك أن الإمساك بالأول والثاني لا يتم إلا من خلال الثالثة. إننا نعيش الأحاسيس ونعيش الوجود من خلال هذه المقولة. «إن الإنسان يوجد داخل الرمرية» إن فكره يتشكل من علامات، وبواسطة السنن (الثالثة) يستطيع الإمساك بالواقعي (الثانية)

وبالممكن (الأولانية) « (42) فـ «علاقته بالواقع ليست مباشرة، إنما نكون لأنفسنا نموذجاً للواقع عبر تأويل رمزي. وهذا التأويل يستند إلى أسنن مشتركة تشكلت وتطورت داخل السيرورة الإملاعية» (43). وهذا أمر طبيعي «الفكر ليس نوعية، فالنوعية حادثة ومستقلة عن الزمان ومستقلة عن كل تحقق، ولن يكون بالتأكيد واقعة، ذلك أن الفكر عام (...)» إنه عام لأنه يحيل على مجموع الأشياء الممكنة، وليس فقط على تلك الموجودة. (...) «(44) فلكي يحيل سلوك ما على قانون أو يكون مصدراً للدلالة يجب أن يظهر بمظهر العام، أي يكون قادراً على تعطية مساحة تشتمل على بنية عامة تحتوي على كل النسخ الممكنة لهذا السلوك

إن فكرة الدلالة ذاتها مبنية على سيرورة ثلاثية، فلا يمكن تصور دلالة خارج سيرورة تجمع بين عناصر ثلاثة، وذلك يعود في تصور بورس إلى مقدمتين منطقيتين. «المقدمة الأولى هي أن كل علاقة ثلاثية أصيلة تستدعي دلالة، مادامت الدلالة هي بطبيعة الحال علاقة ثلاثية. والثانية هي أن العلاقة الثلاثية لا يمكن أن يعرضها من خلال علاقات ثنائية وقد يحتاج إلى كثير من التفكير لكي نقنع بأن كل علاقة ثلاثية تستدعي دلالة» (45).

في ضوء المعطيات السابقة، يمكن القول إن الشرط الأساس لتداول المعنى، وإنتاج دلالة وخلق حوار بين إنساني يكمن في وجود

(42) نفسه ص 104

(43) نفسه ص 106

(44) Peirce (C S) Ecrits sur le signe, Ed Seuil Paris 1978 p 81 - 82

(45) نفسه ص 99

عنصر يقوم بتنظيم معطيات التجربة العادية وفق مصفاه تتطابق مع الذاكرات الفردية بحيث إن كل ذاكرة تتحدد من خلال ذاكرة المجموع . « إن المقولة الثالثة لعاصر الظواهر تشتمل على ما نسميه بالقانون عندما نتأملها من الخارج فقط ، أما حين نغتر إلى وجهي العملة فإننا نسميها فكرا . والأفكار ليست لا نوعيات ولا وقائع وليس بمقدور أية مجموعة من الوقائع أن تنتج قانونا ، ذلك أن القانون يتجاوز الواقعة المنحقة » . (46)

وكما كان الأول بداية وكان الثاني نهاية ، فإن الثالث هو القانون الذي وفقه تتم العلاقة بين الأول والثاني . والرابط بين العناصر الثلاثة هو ما يحدد في نهاية المطاف طريقتنا في الإمساك بالتجربة الإنسانية واستيعابها كمفاهيم أي كمفكر ، وهو وحده الذي يقذف بالإنسان داخل سيرونة رمزية يدرك عبرها كل شيء باعتباره شكلا رمزيا . فالشيء لا يدرك في ذاته ، بل يدرك باعتباره سلسلة من الحالات الدلالية المتنوعة .

ولئن كانت نظرية المقولات حقلا مكنميا بداته ، ويخص التجربة الإنسانية في عموميتها ، فإنها تعد الأساس الصلب الذي على أساسه تبنى السيميائيات باعتبارها نظرية في المعرفة ومنطقا في الإدراك . فالعلامة ليست تعييا لأشياء محسب ، وليست إنتاجا لمعنى محسب ، إنها في المقام الأول الأداة الرئيسة لتنظيم التجربة الواقعية ومثولها أمامنا باعتبارها تجربة رمزية . وهذا ما سحاول توضيحه في الفصول الآتية من هذا الكتاب .

الفصل الثاني السميات

العلامة والسيرورة التدلالية

من عالم المقولات والإدراك ووعي المحسوس، ستقل إلى دراسة العلامة السميائية كما تصورهما بورس وصاغ حدودها ورعم ما يوحي به الاختلاف في المصطلحات وتسميات الظواهر، فإن ما جاءت به نظرية المقولات هو نفسه ما سيحدد كافة المضامين التي يمكن أن تمنح للسميات. بل يمكن القول إن الحقل التطبيقي الممصل لنظرية المقولات هو الحقل السميائي ذاته. فمنطق الإحالة والتمثيل وانشاق القانون من سيرورة هذا التمثيل هو نفسه ما يحكم وجود العلامة واشتغالها وأشكال تجلياتها.

إن مبدأ الثلاثية، الذي يعد منطلق كل تمثيل، هو ذاته ما يشكل بناء العلامة، والتمثيل في ذاته ليس وحدة ثائية المسمى تمصل التمثيل عن المعطى الموضوعي (ما يشكل الثنائية في المقولات)، إن التمثيل يطلق، على العكس من ذلك، من أداة هي ذاتها لا تشكل سوى إمكان لا أقل ولا أكثر (الأولايه في نظرية المقولات)، إذ لا يمكن للتمثيل أن يتخذ شكلا مرئيا إلا في حدود قدرته على التجسد في واقعة بعينها. إلا أن هذا التجسد ذاته ليس سوى فعل عرضي راتل

سببتهى بانتهاء الشروط التي أنتجت (ما أشرنا إليه في الفصل السابق - "التحرمة الصافية") . فلا بد إذن من قاعدة تجعل هذا الربط يتسم بالديمومة والاستمرار، أي يتحول إلى قانون ثابت . فالقاعدة يجب أن تنطبق على مجموعة لا محدودة من الوقائع، أي يجب أن تكون عامة للحديث عن فكر وضرورة وعن قانون يحكم كل الوقائع . فالقاعدة التي تنطق على حالة واحدة لا يمكن أن تنتج فكرا أو إدراكا، إن هذه القاعدة هي الثالثة في نظرية المقولات

يمكن القول إذن إن العلامة متنى هي الأخرى باعتبارها وحدة ثلاثية المسمى شأنها في ذلك شأن نظرية المقولات، بل إن معط وجودها ومضمونها وموقعها داخل الممارسة الإنسانية هو التجلي المباشر للمقولات باعتبارها هي الأساس الذي يشكل الإدراك الإنساني : إدراك الذات لعالمها الخارجي ووعيا لمعطياته .

استنادا إلى هذا، فإن الحديث عن سميات بورس هو حديث عن تصوره لعملية الإدراك : إدراك الذات وإدراك الآخر، إدراك "الأنا" وإدراك العالم الذي تتحرك داخله هذه "الأنا" . وهذا أمر في غاية الوضوح في تصور بورس . فلا شيء يوجد خارج العلامات أو بدونها ولا شيء يمكن أن يدل اعتمادا على نفسه دون الاستناد إلى ما توفره العلامات كقوة للتشغيل، فالتجربة الإنسانية بكافة أبعادها ومظاهرها تشتغل في تصور بورس كمهد للعلامات : لولادتها وموتها

إن الإنسان علامة وما يحيط به علامة وما ينتجه علامة، وما يتداوله هو أيضا علامة . والحلاصة أن لا شيء يفلت من سلطان

العلامة، ولا شيء يمكن أن يشتغل خارج النسق الذي يحدد له حجمه وامتداده وعمقه. كما لا يمكن أن يوجد شيء داخل هذا «عالم حراً طليقاً يخلق في فضاءات الكون لا تحكمه ضوابط أو حدود ولا يحد من نزواته نسق».

إن كل شيء يدرك بصفته علامة ويشغل كعلامة، ويدل باعتباره علامة. فالتجربة الإنسانية بدءاً من صرخة الرضيع إلى تأمل الفيلسوف ليست سوى سلسلة من العلامات المترابطة والمتراكبة، إنه مبدأ الامتداد الذي يجعل من التجربة الإنسانية بكل لغاتها (أو مواد تعبيرها) تجربة كلية، تنتهي معه العلامة إلى الانصهار في الفعل.

ولفهم هذه المسلمات في مظهر بورس يمكن التدكير بما قلناه في الفصل السابق عن اللحظات الثلاث المحددة لميكانيزم الإدراك. لقد رأينا أن المقولات الثلاث هي ما يحدد التجربة الإنسانية في مرحلة أولى كتوقعيات وأحاسيس (أولانية)، ثم كوقائع وموضوعات (ثانية) في مرحلة ثانية، وكقوانين وعادات (ثالثة) في مرحلة ثالثة. إن التجربة الإنسانية بهذا المعنى، تجربة كلية، وهذه الكلية لا يمكن أن تشتغل بشكل تام إلا من خلال وجود هذه الأبعاد الثلاثة.

إن هذه المقولات الثلاث توجد في أساس التعريف الذي يمكن إعطاؤه للعلامة. فالعلامة في ذاتها يمكن أن تشتغل كأول وثان وثالث. إنها تحتوي في داخلها على الإمكان والتحقيق والقانون (المكر أو الدلالة).

إن تأكيد هذا معناه النظر إلى العلامة باعتبارها عنصراً داخل تصور نظري شامل يتناول الإنسان كتجربة متعددة الأبعاد - إنه متح للدلالة ومروح لها وأول ضحاياها.

وهذا ما يفسر القول السابق من أن الحقل الأساسي لتطبيق نظرية المقولات هو السميائيات. فإذا كان الأول يحيل على الثاني عبر الثالث (النوعيات أو الأحاسيس تتجسد في وقائع عبر قانون أو قاعدة تسمح بذلك)، فإن العلامة عند بورس تشتعل وفق نفس المبدأ: مبدأ ثلاثية ومبدأ الإحالة. فالمائول (représentamen) يحيل على موضوع (object) عبر مؤول (interprétant).

ولمريد من التوضيح سحبيل من جديد على المثال الذي قدمناه في الفصل السابق، ويتعلق الأمر بكلمة "سيارة". فهذه الكلمة هي علامة تتكون من مائول هو سلسلة من الأصوات / س ي ا ر ة / ، ومن موضوع وهو ما يحيل عليه السيارة باعتباره في ذاته قاعدة للإحالة، وتحتوي ثالثاً على ما يبرر العلاقة القائمة بين المتوالية الصوتية وهذا الموضوع.

ولنترض الآن أننا نطقنا بهذه الكلمة أمام شخص لم يسبق له أن سمع بالكلمة ولا رأى السيارة فماذا سيحدث؟ بالتأكيد لن يدرك هذا الرجل سوى سلسلة من الأصوات. صحيح قد تعجبه رنة الكلمة، كما قد يستهويه تسلسل الأصوات وطريقة ترتيبها مما يخلق عنده إحساساً ما، وما عدا هذا الإحساس فإنه لن يدرك أي شيء.

إلا أنني قد أخطو خطوة إصافية وأخذ بيده وأريه سيارة "فعلية"، وفي هذه الحالة سيقارن بين السيارة والكلمة، وسيدرك

أن تلك الأصوات تعين هذا الشيء المفرد المجسد أمامه باعتباره " واقعة فعلية " و " وجودا عيبيا " . وها أكون قد ربطت بين متواليه صوتية وبين موضوع بعينه ، أي فمت بصب " معطيات شعورية أو بوعية " في تجربة قابلة للمعانية . إلا أن هذا الربط في ذاته لا يمكن أن يكون نهاية السيرة ، ولا يمكن أن يشكل في ذاته سدا صلبا للإدراك .

فهذا الربط عرصي ولحظي ورائل ، في حين أن الإدراك يحتاج إلى التجريد ، أي ما يجعل من التجربة قابلة للقول . فقد يعود هذا الرجل إلى مسكنه ويسمى الكلمة والشيء معا . والسبب في ذلك أنه لا يملك ما يسمح له بصياغة تجريدية لحدود تجربة واقعية رآها بأعينه . فلنكن يمتلك السيارة في ذاكرته ، عليه أن يتوهم على قانون . ولقانون هو أن نجعل من الربط بين السيارة ككلمة والسيارة كموضوع ربطا دائما ، بحيث قد تنتمي السيارة كوجود عيب ، إلا أنها تظل مع ذلك حاضرة كمودج إدراكي دائم في ذهنه . وهذا النمودج هو التعريف الذي يمكن أن نعطيه للسيارة باعتباره آلة تتحرك بأربع عجلات ومحرك وتسير بالسرير ، وتستعمل للتقل . إن هذا النمودج ، الذي يقوم بالتوسط بين كيانين ، هو ما يطلق عليه بورس المؤلف .

إن هذه السيرة الموصوفة من خلال هذا المثال يطلق عليها بورس السميوز (sémiose) . والسميوز هي السيرة التي تقود إلى اسح دلالة ما ، أي إلى تأسيس العلاقة السميائية ماثول موضوع عن عنصر التوسط الإلزامي : المؤلف .

وبعبارة أخرى، فإن السميور تتحدد باعتبارها سيروية يشتغل من خلالها شيء ما كعلامة. وتستدعي تضافر ثلاثة عناصر: الماثول والموضوع والمؤول، وهي عناصر تشتغل ضمن حلقة يحيل كل عنصر داخلها على عنصر آخر. والعلامة لا يمكن أن تكون علامة إلا إذا كانت جمعا وربطاً بين هذه العناصر الثلاثة.

إن الخلاصة الأولى هي أن العلامة عند بورس وحدة ثلاثية المبني غير قابلة للاختزال في عنصرين كما هو الشأن عند سوسير. فسوسير يرفض أن يتضمن تعريف العلامة عنصراً من خارج اللسان فالعلامة صده تربط بين دال ومدلول (بين صورة سمعية وتصور ذهني) لا بين اسم وشيء. فلقد رفض بشكل قطعي في تعريفه للعلامة إدراج كل ما يمكن أن يشير إلى ما يسمى عنده بالمرجع، أي الشيء بصفة عامة.

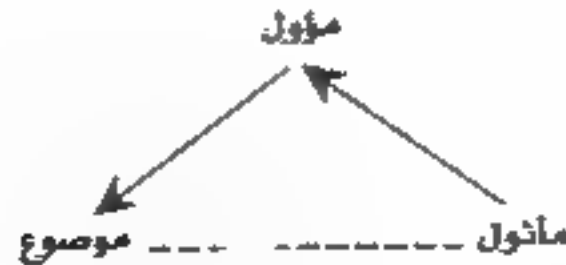
على أن الثلاثية هنا لا يجب أن ينظر إليها باعتبارها إضافة لعنصر ثالث غائب في نظريات أخرى، كما لا تتعلق بالإحالة الحرفية على مرجع، أي على سلسلة من الموضوعات التي تمتنع بوجود فعلي وتشتغل في استقلال عن الذات المدركة، أي خارج العلامة. إن الأمر على العكس من ذلك؛ فالقضية من طبيعة أخرى إنها تعود في واقع الأمر إلى تصور نظري يجعل من العالم بكافة أبعاده علامة، ويعود من جهة ثانية إلى كون كل عنصر داخل العلامة قادر على الاشتغال كعلامة أي قابلاً للتحويل إلى ماثول يسقط خارجه موضوعاً عبر مؤول، فالموضوع هو في المقام الأول علامة، لأن الإمساك به يتم دائماً من خلال عماد *fondement*، وكل مرجع لا بشكل، في

بهاية المطاف، سوى حالة قصوى لا حالة بعدها⁽¹⁾. ويمكن تفسير هذا التصور من خلال خاصيتين تعتبران أساسيتين في تصور بورس لاشتغال ووجود العلامة:

- الخاصية الأولى تعود إلى كون السميات عند بورس ليست مرتبطة باللسانيات، فموضوع دراستها لا يحتصر في اللسان، ذلك أن التحرر الإنسانية (واللسان جزء منها) هي موضوع السميات البورسية.

- الخاصية الثانية تعود إلى نمط التصور الذي يحكم، في فلسفة بورس، العلاقة الراجعة بين الإنسان ومحيطه. فهذه العلاقة تتميز بكونها غير مباشرة ويحكمها مبدأ التوسط (ما يطلق عليه كاسيرير الأشكال الرمزية) فالأشياء لا تدرك إلا رمباً، أي تدرك باعتبارها جزءاً من نسق من العلامات، فما ندركه الذات ليس أشياء مفصولة عن هذه الذات.

وعلى هذا الأساس، فإن السيرة السمياتية (حقن السمبور) تستدعي الماثول كأداة للتمثيل، وتستدعي الموضوع كشيء للتمثيل، وتستدعي مؤول يقوم بالربط بين العنصرين، أي ما يوفر للماثول إمكانية تمثيل الموضوع بشكل تام داخل الواقعة الإبلاغية:



(الخط المنقطع يشير إلى أن العلاقة بين الماثول والموضوع ليست مباشرة بل عبر المؤول).

(1) Claudine Tiercelin - Pearce et la Pragmatique, éd P U F, 1993, p 66

إن الإحاطة بالعلامة والكشف عن نمط اشتغالها يتطلبان تعريف العناصر التي تكونها وتحديد موقع كل عنصر داخل عملية إنتاج الدلالة بالإضافة إلى نمط اشتغاله الذاتي.

الماثول

إن العلامة هي علاقة ثلاثية بين أول وثان وثالث وتحتوي هذه الثلاثية على مبدأ الإحالة اللامتناهية. فالأول يحيل على الثاني عبر ثالث، هو نفسه قابل لأن يتحول إلى أول يحيل على ثان عبر ثالث جديد. فالسمبور⁽¹⁾ هي في الاحتمال سيرورة لامتناهية، وهي في الوجود منتهية⁽²⁾. ويعرف بورس الماثول بقوله «إن العلامة أو الماثول⁽³⁾ هي شيء يعوض بالنسبة لشخص ما شيئاً ما بأية صفة وبأية طريقة. إنه يخلق عنده علامة مواربة أو علامة أكثر تطوراً. إن العلامة التي يخلقها أطلق عليها مزولاً للعلامة الأولى وهذه العلامة تحل محل شيء هو موضوعها»⁽⁴⁾.

إن الماثول، على هذا الأساس هو الأداة التي نستعملها في التمثيل لشيء آخر. إنه لا يقوم إلا بالتمثيل، فهو لا يعرفنا على الشيء ولا يزيدنا معرفة به. ذلك أن موضوع العلامة، كما يقول بورس، هو ما يجعل منها شيئاً قابلاً للتعرف، وهو، في نفس

(2) Deledalle, "Avertissement aux lecteurs de Peirce", in *Langages* n 58, p. 26

(3) دعم أن بورس يستعمل عبارة «العلامة أو الماثول» فإن هناك فرقاً واضحاً بينهما «العلامة هي الشيء المعطى كما هو، بينما يعين الماثول الشيء / علامة منظورة»
إليه داخل التحليل الثلاثي كمعصر فلتحل سيرورة للتأويل.

انظر Everet-Desmedt (Nicole): *Le processus interprétatif*, p. 39

(4) بورس المرجع السابق ص 120

الموت، المعرفة المفترضة من خلال وجود باث ومتلق (5).

ويستفاد من هذا التعريف أن الماثول .

- ليس واقعة لسانية بالضرورة .

- يحل محل شيء آخر .

- أداة للتمثيل .

- لا يوجد إلا من خلال تعيينه داخل موضوع ما .

- لا يستطيع الإحالة على موضوعه إلا من خلال وجود مؤول
يمنح العلامة صحتها (توفير شروط التمثيل) .

فإذا أخذنا قطعة من ورق أحمر (ماثول) كعينة لعبية صباغة
(موضوع)، فإن هذه القطعة لا تشير إلا إلى اللون الأحمر الحاصل
بهذا الموضوع . ذلك أن المعرفة الخاصة بالموضوع مفترضة من
خلال مجموع مظاهره (التكليف، المادة، الاستعمال . . .) :

ماثول ← موضوع
قطعة من

ورق احمر ----- علة صاعة حمراء (6)

إن كل ما يشتغل كمحامل لشيء يتجاوزته يمكن أن يشتغل كماثول
(قد يكون من طبيعته لسانية أو اجتماعية، أو موضوع من موضوعات
العالم) إن استعمال بورس لكلمه شيء (chose) في تعريفه للماثول

(5) Carrotini (Enrico) Action du signe , p. 25

(6) افرات دسلب نسه ص 40

معناه أن هذا الماثول ليس متوالية صوتية لها موقع معين داخل لسان ما، بل هو ظاهرة عامة قد تكون اجتماعية وقد تكون طبيعية وقد تكون لسانية بطبيعة الحال. وفي جميع الحالات، فإن نمط اشتعال ماثول ما لا يحدده سوى الموقع الذي يحتله داخل نسق سمياتي ما؟ والماثول يتحدد إذن وفق طريقتين:

- وفق علاقته بكل الماثولات الأخرى التي تشترك معه في وطبيعة التمثيل (أي أننا لا نأخذ في الاعتبار سوى وطبيعة التمثيل ونغفل انتماءه إلى هذا النسق أو ذلك).

- ويتحدد وفق موقعه داخل النسق المحدد لطبيعته (ينظر إلى الماثول باعتبار النسق الذي ينتمي إليه: طبيعياً، اجتماعياً، لسانياً).

وبما أننا نتعامل مع الماثول باعتباره الأداة الأولى في الخروج من النوعيات والأحاسيس إلى ما يمثل تحسيدا لهذه النوعيات وهذه الأحاسيس، فإن إحالته على موضوع ما لا تلغي إمكان استمراره في الحياة ككيان مستقل باعتباره قابلاً للتجزئ. وفق مبدأ المقولات العامة نفسه: أولانية الماثول وثانانية الماثول وثالثانية الماثول (انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب). ومن هذه الراوية، فإنه يختلف عن الدال السوسيري⁽⁷⁾ الذي لا يدرك إلا من خلال وجود المدلول، تماماً كما أن المدلول لا يدرك إلا من خلال وجود الدال.

(7) انظر Deledalle, G. Théorie et pratique du signe, Ed. Payot 1979

وحاصة العصلين

Peirce on Saussure pp 29-39

Saussure et Peirce, pp 40-49

إن الماثول لا يعرفنا على الشيء ولا يزيدنا معرفة به، إن وظيفته الأساس هي التمثيل لشيء آخر. ومعارة أخرى، فإن الماثول هو ما يمكن الموضوع من الخروج من دائرة الوجود الطبيعي، إلى ما يشكل الوجود الثاني في حياة الأشياء. فخارج التمثيل لا يمكن للموضوع أن يكون موضوعا، فحياته رهينة بالموقع الذي يحتله داخل سيرونة السميوز، كبقا كانت الأداة المستعملة في التمثيل

الموضوع

إن الموضوع هو ما يقوم الماثول بتمثيله، سواء كان هذا الشيء الممثل واقعا، أو متخيلا أو قابلا للتحويل أو لا يمكن تخيله على الإطلاق. ويلخص بورس هذه الملاحظة بقوله «إن موضوع العلامة هو المعرفة التي تفترضها العلامة لكي تأتي بمعلومات إضافية تخص هذا الموضوع»⁽⁸⁾. ويوضح بورس هذا التعريف بقوله «إذا كان هناك شيء يحدد معلومات دون أن تكون لهذه المعلومات أدنى علاقة بما يعرفه الشخص الذي يستغلها لحظة بشا (وستكون معلومة غريبة حقا)، فإن الأداة الحاملة لهذه المعلومات لا تسمى - هي هذا الكتاب - علامة»⁽⁹⁾.

فإذا كان الموضوع، كما هو واضح من هذا التعريف ومن التصور البورسي للعلامة بصفة عامة، لا يعين مرجعا ماديا متمصلا عن فعل العلامة ذاتها، فإنه لا يمكن أن يشتغل إلا إذا نُظر إليه باعتباره علامة ومعارة أخرى، فإن الأمر لا يتعلق بموضوعات تتحرك خارج دائرة

(8) Peirce (C S) Ecrits sur le signe, p 123

(9) نفسه ص 124

فعل السيمبوز، بل يتعلق الأمر بعنصر يعد جزءاً من العلامة وقابلاً للاشتغال كعلامة. «فموضوع العلامة لا يمكن أن يكون إلا علامة أخرى. ذلك أن العلامة لا يمكن أن تكون موضوعاً لنفسها. إنها بالأحرى علامة لموضوعها من خلال بعض مظاهرها»⁽¹⁰⁾.

وبناء عليه، فإن الحديث عن موضوع ما داخل إحالات السيمبور لا يمكن أن يفصل عن عملية الإبلاغ نفسها. فالباث والمتلقي يجب أن يمتلكا معرفة سابقة عن موضوع ما لكي يكون هناك حوار. وهذه المعرفة السابقة (في علاقتها بالمعرفة الإصافية) تتحدد من خلال سلسلة من العلامات السابقة، أي العلامات غير المتحققة داخل السياق الخاص للإبلاغ. وهذا السياق الخاص هو الذي يحدد الموضوع الخاص للعلامة. وتعبير آخر، من أجل رد هذا الموضوع إلى هذه العلامة وليس إلى تلك، يجب استحضار السياق الخاص الذي تندرج العلامة وتؤول ضمنه، «ذلك أن العلامة لا توفر معرفة ما فحسب، بل نستطيع عبرها التعرف على شيء جديد»⁽¹¹⁾.

إن الملاحظة الأساسية التي يمكن استخراجها من هذا التصور، تعود إلى طبيعة الموضوع. هل يعين الموضوع شيئاً ما في العالم الخارجي، أم هو مجرد مضمون ذهني لا مقابل له في الواقع؟ وبعبارة أخرى، هل يمكن الحديث عن الموضوع باعتباره شيئاً يتحدد من خلال خصائصه الفيزيائية فقط، أم أن الأمر يتعلق بعلامة

(10) Caivet de Magalhães (Theresa): *Signe ou Symbole, Introduction à la* (10)
Sténographie de C S Peirce Ed Cabay 1981 p 162

(11) نفسه ص 161

أخرى، أي بوحدة ثقافية لا تدرك إلا من خلال سنن التعرف كما يعبر عن ذلك إيكو .

من الواضح أن التحليل البورمي يقودنا إلى التحديد الثاني فيما أن الموضوع يحيل على معرفة سابقة مشتركة بين الباث والمتلقي، فإن هذه المعرفة تشكل وحدة ثقافية مسننة داخل موسوعة، تتعبير إيكو . وبهذا المعنى، فإن التعامل مع الموضوع بطريقة أخرى غير ما رأيناه سابقا معناه الابتعاد عن روح هذا التحليل . فالموضوع لا يدرك كذلك إلا من خلال انصوائه داخل عالم السميوز كجزء لا يتجزء منها .

وفي ضوء هذا التعريف، يمكن التمييز بين معرفة مباشرة وأخرى غير مباشرة (أي التمييز بين ما نفترضه العلامة وبين ما تحققه) . فالمعرفة المباشرة هي تلك المعرفة المعطاة من خلال الفعل المباشر للعلامة، أي ما يتم تحيينه من خلال نقل معطيات الأولانية داخل الثنائية . أما المعرفة غير المباشرة فهي تلك التي تدرك من خلال ما هو مفترض داخل العلامة، أي من خلال السياق المعيد للعلامة .

إن التمييز بين معرفتين سيقود بورس إلى التمييز بين موضوعين : أحدهما داخلي والثاني خارجي، وذلك في علاقتهما بعمل التمثيل . والموضوعان مختلفان من حيث الوجود ومن حيث معطى الاشتغال . فكيف سيتم التمييز بين الموضوعين ؟ .

يحدد بورس طريقة هذا التمييز من خلال تناوله لمفهوم العماد . ولتوضيح هذا المفهوم نورد من جديد التعريف الذي يعطيه بورس

للعلامة: «فالعلامة أو الماثول شيء يعوض بالنسبة لشخص ما شيئاً ما بأية طريقة وبأية صفة. إنه يتوجه إلى شخص لكي يخلق عنده علامة موارية أو علامة أكثر تطوراً. إن هذه العلامة التي يخلقها أطلق عليها مؤولاً للعلامة الأولى إن هذه العلامة تحل محل شيء». موضوعها. إنها تحل محله لا من خلال كل مظاهره، بل من خلال فكرة أطلق عليها عماد الماثول...»⁽¹²⁾. والعماد كما يبدو من خلال التعريف السابق هو طريقة معينة في التمثيل وبعبارة أخرى، إنه انتقاء خاص يتم وفق وجهة نظر معينة، «إنه صفة للموضوع باعتباره متلقى بطريقة معينة بهدف خلق موضوع مباشر»⁽¹³⁾. فأتت عندما تنطق بكلمة أو جملة فإياك لا تحيل فقط على ما تود قوله مباشرة ولكك، بشكل ضمني، تحيل على أشياء أخرى لا يتعلّق بها السياق الذي تريد أن تبلغ أحداً ضمنه شيئاً ما.

إن العماد، على هذا الأساس، يحدد من جهة ما هو متحقق داخل العلامة وذلك بطريقة مباشرة كانتقاء خاص يترك بالضرورة سلسلة أخرى من المعارف جانباً. ويحدد من جهة ثانية، بطريقة غير مباشرة هذه المرة، ما هو مفترض وقابل للتحقق ضمن سياق محدد، أي داخل دائرة إبلاغية تفترض وجود باث ومثلق.

ونناء عليه يمكن، حسب بورمن، أن نحدد موضوعين يتطابق كل واحد منهما مع نوع من أنواع المعرفة المحددة سابقاً. موضوع مباشر وموضوع ديباميكى:

(12) بورمن المرجع السابق ص 121

(13) Eco (Umberto) Lector in Fabula. Ed. Grasset, 1985 p 36

- الموضوع الأول معطى داخل العلامة كمعلومة جديدة تصاف إلى سلسلة المعلومات السابقة . أي ما يدرك بشكل مباشر دون حاجة لاستحضار شيء آخر .

- الموضوع الثاني ضمني ومعطى بطريقة غير مباشرة . إنه حصيلة سيرورة سمبائية سابقة يسميها بورس التجربة الصميمة (expérience collatérale) .

ولتوضيح هذا التمييز بين الموضوعين يعطي بورس المثال التالي :

الشمس زرقاء

إن هذه الجملة حسب بورس تحتوي على معرفتين (موضوعين) : هناك أولا الموضوع "شمس" ، فهذه "الشمس" نعرف عنها أشياء كثيرة قبل تحققها داخل هذه الجملة . إنها نجم لها موقع محدد ودور محدد داخل منظومة بعينها ، ونعرف ما قاله الفزيائيون عنها ، وما قاله الشعراء ، ونعرف عنها كذلك موقعها داخل المخرافات ، ونحن على علم بمكانتها الدينية عند بعض الشعوب . . . إلى غير ذلك من المعلومات التي لا يمكن تفسيرها إلا من خلال استحضار التجربة الإنسانية وتفاعلها مع محيطها الطبيعي

إن هذه المعرفة ليست معطاة بطريقة مباشرة داخل العلامة ، بل هي معرفة مفترضة فقط . فالمتلقي لهذه الجملة يحين داخل سياق خاص - جزءا منها . أما ما تقوله الجملة مباشرة ، أي عملية "إستناد الرقعة إلى الشمس" ، فتلك معلومة جديدة أضيفت إلى باقي المعلومات الأخرى . ونبعا لذلك ، فإن المعلومة هي ما يطلق عليه

مورد من الموضوع المباشر، أما المعلومات الأخرى الصمّنة، غير المباشرة فإنها تشكل الموضوع الديناميكي. (14)

إن التمييز بين موضوع مباشر وآخر ديناميكي هو طريقة أخرى للقول إن الواقع يتجاوز العلامة، وإن العلامة من خلال إمكاناتها الداتية غير قادرة على إعطاء تمثيل كلي وتام للعالم الخارجي. فعملية التمثيل - بحكم هذا القصور - لا يمكن أن تكون إلا جزئية إنها تترك جانباً سلسلة من المظاهر التي لا تستقيم داخل هذا التمثيل، ذلك أن هذا التمثيل يتم دائماً داخل سياق خاص

ومع ذلك، فإن هذا لا يعني أننا أمام فعلين مختلفين يوجد أحدهما داخل السميوز، بينما يظل الثاني خارجها. «فإذا انطلقنا من السميوز، أي من شبكة العلامات التي تحيل دون توقف على علامات أخرى، فإن الموضوعين معاً، المباشر والديناميكي، يعدان نتاجاً للسميوز. فالموضوع الديناميكي يوجد هو الآخر داخل السميوز، أي داخل الثالث إلا أنه على مستوى اشتغال كل موضوع على حدة، فإن الموضوع الديناميكي يؤسس، من خلال مشوّله كتجاوز للعلامة، استقلال الموضوع عن العلامة» (15)

وهكذا يستطيع الماثول - من خلال الموضوع الديناميكي - استعادة كل العناصر المتفلّنة من عملية التمثيل الأولى (الخطّة تعديده الموضوع المباشر)، وسنكون حينها أمام زاويتين مختلفتين للنظر - الأولى تترك ما هو ممثل داخل العلامة اعتماداً على عناصر

Caron, op. cit. pp. 30-31 (14)

Vern (Elésco): La sémiotique et son monde; Langages 58 p 71 (15)

التجربة المشتركة فقط . فعندما نتحدث عن الشمس وفق المثال السابق، فإنك لا نتحدث عن أي شيء سوى عن هذا الجسم الذي يسطع في السماء .

- الثانية تقتضي استحضار كل التجارب السابقة الكميلة بإظهار ما هو صممي داخل العلامة، كما كان الشأن في المثال السابق حيث استحضرت كل المعلومات العلمية والأنتروبولوجية الخاصة بالشمس (مسيود إلى هذه النقطة بالدات في مناقشتنا للطريقة التي يحيل من خلالها الماثول على الموضوع).

ويمكن من هذه الراوية توسيع دائرة العلامة لكي تشمل النص كله فالنص - وفق نمط توزيع الموضوعات - يتحدد كتحيين مزدوج :

- تحيين مباشر وهو ما يسهم في تحديد تغوّم النص ومثوله أمامنا ككون مكتف بذاته (ما يربط بين بياصين دلاليين).

- و تحيين غير مباشر، أي كل الإحالات النصية التي لا يمكن تعاضلها في أية قراءة، وهي المعارف التي يحيل عليها النص من خلال تكوين ذاته، وهو أيضا سلسلة النصوص التي يحيل عليها صميا من خلال عناصر التحقق.

هما يسمى بالمعرفة الخارج نصية (أو المسكوت عنه) ليس سوى طريقة أخرى للقول إن النص يسقط خارجه - لحظة تشكله ~ سلسلة من النصوص القابلة للتحيين مع أدنى تنشيط للذاكرة المؤوكة، والموضوع الديناميكي في حالة النص الإبداعي، هو مطلق أي تحليل، فلكي تؤول عليك أن تعيد صياغة العلاقات.

وهي جميع الحالات ، فإننا نكون أمام موضوعين : أحدهما مباشر وهو ما يشكل معطيات النص الظاهرة . وآخر ديناميكي ، أي المعرفة المفترضة التي تؤسس ، عبر وجودها ، فعل التأويل .

المؤول

يعتبر المؤول ثالث عنصر داخل نسيج السميوز ، وهو ما يحددها في نهاية المطاف . إنه عنصر التوسط الإلزامي الذي يسمح للماثول بالإحالة على موضوعه وفق شروط معينة . فلا يمكن الحديث عن العلامة إلا من خلال وجود المؤول باعتباره العنصر الذي يجعل الانتقال من الماثول إلى الموضوع أمرا ممكنا . إنه هو الذي يحدد للعلامة صحتها ويضعها للتداول كواقعة إبلاعية .

إن هذه التحددات الأولية ليست كافية للكشف عن العمق الحقيقي للمؤول . ذلك أن هذا المفهوم يعد من أشد المعاهيم غموضا داخل سميات بورس . فإذا كان بورس يعرفه بأنه « كل ما هو معطى بشكل صريح داخل العلامة نفسها في استقلال عن سياقه وعن الشروط المعبرة عنه »⁽¹⁶⁾ فإن الدراسات التي أحرزت حول كتابات بورس ذهبت بهذا المفهوم في كل اتجاه . فأحيانا تضيق دائرته ليحصر فقط العكزة التي تسمح للماثول بالإحالة على موضوعه ، وهو بهذا لا يختلف عن المدلول السوسيري (كما تصوره سوسر على الأقل) . وأحيانا تتسع دائرته ليشمل الحقول الثقافية ، أي فعل التسنين الذي تنم من خلاله عملية الإحالة ، وهو بهذا يقترب من السن الثقافي في مفهومه العام .

(16) بورس ، المرجع السابق ، ص 128

ومستحاول في هذه الصفحات أن تقدم سلسلة من التعاريف التي قد تساعدنا على تكوين تصور شامل عن مفهوم المؤول وطبيعته ووظيفته وموقعه داخل فعل السميوز.

ولعل أولى الملاحظات تكمن في أن كل التعاريف تؤكد طبيعته التوسيطية. إنه ما يربط بين عنصرين، أي الشرط الضروري لاشتغال السميوز، «فهو عنصر توسيطي يقوم بربط الماثول بموضوعه، ولكنه، في الآن نفسه، يبرز المسافة التي لا يمكن ملؤها أبدا بين الماثول والموضوع»⁽¹⁷⁾. ولأنه «علامة موارية أو أكثر نظورا»، فإنه، في ضمانه للإحالة، يؤكد هشاشتها. فتصور البحث من جديد عن إحالة جديدة أمر وارد في كل لحظة ومع كل سياق (مع أي فعل تأويلي). ذلك أن الإحالة تخصص لتراتبية، ولا يشكل المؤول داخلها سوى إمكان ضمن إمكانات أخرى.

وإذا كان المؤول يشير - من بعيد أو من قريب - إلى عملية التأويل التي تسمح للمستلقي بإدراك العلامة، فإنه لا يتطابق مع الشخص الشارح (l'interprète)، ذلك أن المؤول لا يشترط وجود الشخص الشارح، إنه يشكل فقط «الوسيلة التي يستعملها الشخص المؤول من أجل إنجاز تأويله». وهكذا يمكن أن يعطي شارحون كثيرون تأويلات مختلفة لنفس الشيء/ العلامة إذا كانوا ينطلقون من مؤولات مختلفة⁽¹⁸⁾.

وفي ضوء هذين التعريفين، فإن مفهوم المؤول يتطابق، داخل

(17) إعراب سمند، نفسه ص 40

(18) نفسه ص 42

حقول السميات، مع مفهوم الثانية داخل نظرية المقولات. فإذا كانت الثانية تقوم بوصف الأول والثاني داخل علاقة، فإن المؤول بدوره يقوم بنفس الفعل. إنه يشتغل كقانون وقاعدة (يجب تحديد مضمون هذا القانون وهذه القاعدة). «إن المؤول باعتباره حداً ثالثاً هو الذي يقوم - داخل السلسلة - بإدخال القاعدة أو المبدأ العام الذي يربط الحدود الثلاثة فيما بينها» (19).

إن القول بوجود القانون معناه الحد من اعتباطية الإحالة. فالمؤول يحيل على الموضوع وفق قانون. وإذا انتفى هذا القانون، فإننا سنعود إلى نقطة البدء: أي نعود إلى معطيات (أحاسيس ونوعيات) مجسدة في وقائع ولا حد لهذه الوقائع ولا صباط ولا ذاكرة.

وبناء عليه، إذا كانت عملية الإحالة غير اعتباطية - فكل تأويل يتم داخل دائرة ثقافية محددة - فإن المؤول يقوم بإرساء قاعدة للتأويل. وبهذا المعنى، فإن «المؤول ليس حراً في تأويله، إنه يترجم إلى لغة معينة ما قيل في لغة أخرى» (20). إن محدودية التأويل هاته تقرأ بلغة أخرى كتحديد لحقل ثقافي يسمح بهذا التأويل ويرقص ذلك. من هنا، فإن انتقاء مؤول ما هو في نفس الوقت استبعاد لآخر، ما دام الانتقاء يحدد دائرة التأويل التي يتبناها الشخص الذي يقوم بعملية التأويل.

ستحيلنا هذه الملاحظات على تحديد آخر للمؤول. بحيث إذا

(19) منه ص 18

Deledalle: Théorie et pratique du signe p 48 (20)

كان المؤول عنصرا توطييا، فإن التوسط معناه إلغاء الطابع المباشر للعلاقة بين الإنسان ومحيطه الخارجي. ذلك أن أي تأويل (وأي سلوك) إنما يتم استنادا إلى معرفة مسبقة تحدد للشيء موضوع التأويل موقعه داخل سنن معين (قسم من الأشياء). وتبعاً لذلك، فإن «مؤول علامة هو القيمة (أو مجموع القيم) التي يحتوي عليها الماثول لحظة إدراكه من طرف ذات ما (شارح بالقوة) داخل حقل (أو حقول) من المؤولات التي تمتلكها هذه الذات (إنه البؤرة التي تحددتها)» (21).

إن تحديد المؤول باعتباره سلسلة من القيم التي تمتلكها الذات (المتلقي) ونحينا العلامة (الماثول)، دفع روبر مارتي إلى عقد مقارنة بين مقولة «حقل المؤولات» وبين «الحقل الثقافي» ، ما دام كلا المفهومين يؤسس التأويل ك فك لرموز ما تم تسنيته عبر التجربة الإنسانية بكافة أبعادها. إلا أنه يندرك هذا الحكم ويميز بينهما. «فحقل المؤولات يبدو أكثر شمولية وأكثر جدلية في حدود أنه عصر «كوني محسوس» ، في حين يتحدد الحقل الثقافي كمصر «كوني مجرد» ، أي كون مفصول عن لحظة تشكله» (22).

إن التمييز بين الكوني المجرد (الحقل الثقافي) والكوبي المحسوس (حقل المؤولات) هو تمييز بين سلسلة من الممارف (القيم) المثبتة داخل أشكال عامة تختزنها الذاكرة الجماعية التي يستحيل تحديد أصلها ولا لحظة تشكلها، وبين الفعل النحيني، أي

Marty (Robert) : La théorie des interprétants, Langages 58 p 37 (21),

R. Marty: Théorie des interprétants, in Langages n 58, p 37 (22)

المعل الذي يقوم، داخل هذه الناكرة، بتحديد صيغة دلالية تعد نقطة نهائية داخل سيرة تأويلية. وبعبارة أخرى، إنه يدخل الترميز والتصصية اللذين يحيطان ما يتمي إلى "المهمومي" و "المجرد" و "العام" داخل وصعية إبلاعية محددة، أي داخل السياق الخاص.

وبناء عليه، فإن المؤول هو "العلامة المتقاة داخل حقل العلامات / مؤولات ذات الامتداد اللامحدد ويمكن، داخل هذا الامتداد، التمييز بين الحقل الثقافي (اللساني، الجمالي، الإيديولوجي) الذي أنتمي إليه، وبين الحقل الذي أحده كوجود نصائي ورماني (هذا القضاء وهذا الزمان) الذي يوهمني أنني أنفقت من العلامة، في حين أنني بؤرتها وأسي أنا أيضا علامة" (23).

إن التعريفين السابقين معا (تعريف مارتي وتعريف دولودال) يلتقيان عند نقطة أساسية هي اعتبار المؤول جزءا من حقل ثقافي. وبعبارة أخرى، إن العلامة لا تدرك إلا من خلال استحضار الحقل الثقافي.

فإذا كان مارتي يميز بين "الكوني المحسوس" (حقل المؤولات) وبين "الكوني المجرد" (الحقل الثقافي)، فإن دولودال لا يقول شيئا آخر. فمن خلال التعريف الذي يقدمه للمؤول يتضح أن هذا المؤول علامة يتم انتقاؤها داخل حقل أعم وأشمل هو الحقل الثقافي بعناصره اللسانية والجمالية والإيديولوجية (الكوني المجرد). فعمل الانتقاء هو تحيين "للأنا" و "الها" و "الآن" (الكوني المحسوس).

Deledalle, "Avertissement aux lecteurs de Peuce", p. 26 (23)

وبناء عليه ، يمكن تحديد المؤول بأنه مجموع الدلالات الممننة من خلال مبرورة سمبائية سابقة ومثبتة داخل هذا السق أو ذاك .
وبعبارة أخرى ، إنه نكثيف للممارسات الإنسانية في أشكال سمبائية يتم تحييدها من خلال فعل العلامة (أي لحظة تصور إحالة تشترط وجود قانون) ، سواء كانت هذه العلامة لسانية أو طبيعية أو اجتماعية .

ومع ذلك ، فإن هذا التعريف لازال في حاجة إلى تدقيق . فإذا كان التفسير فعلا لاحقا للتشخيص - فالأصل في السلوك الإنساني هو التشخيص - فإن فعل التأويل ، باعتباره حالة ثقافية داخل السلوك الإنساني ، يحتوي على تراتبية ، وداحل هذه التراتبية يمكن تحديد سلسلة من القراءات الممكنة . ومن ثم لا يمكن الحديث عن مؤول واحد ، بل عن سلسلة من المؤولات تعكس ما للدلالة من مستويات . وهذا ما سيقودنا إلى تحديد أنواع المؤول وتحديد طبيعة كل مؤول على حدة .

المؤول ومستويات الدلالة

إن التجربة العادية تدلنا على أن الامساك بالشيء يتم دائما عبر مستويات متعددة . فالنات المتكلمة تخلق ، انطلاقا مما توفره هذه التجربة ، أساقا لمعان جديدة تتجاوز غيرها المعطى المباشر . وليس هناك من فعل تأويلي قادر على احتواء كل معطيات الموضوع ضمن نظرة شاملة وكلية . فحتى لا يمكننا أن نعطي واقعة ما تأويلا واحدا جامعاً مانعاً فندخول المؤول ، كعنصر ثالث ، داخل مبرورة التمييز يسمح ، من جهة ، بإحالة الماتول على موضوعه ، ولكنه ،

من جهة ثانية، يقوم بـ "إبراز الهوية الدائمة الفاصلة بين هذا الماثول وموضوعه" (إفراات-دسمنت).

وعرض أن ننظر إلى هذه المسافة بصفاتها قصورا في فعل الإحالة وفعل التأويل أيضا، يجب أن ننظر إليها كضمانة على غنى التأويل وتحده المستمرين. إن مستويات الإدراك هاته هي التي دفعت بورس إلى التمييز بين ثلاثة أنواع في وجود المؤول. وكل نوع يحدد مستوى دلالي خاص له طريقته في الوجود وطريقته في ضبط الإحالة وهذه الأنواع هي: المؤول المباشر، المؤول الديناميكي، والمؤول النهائي.

المؤول المباشر

«إن المؤول المباشر هو المؤول الذي يتم الكشف عنه من خلال إدراك العلامة نفسها. وهو ما سمي عادة بمعنى العلامة (...)» إنه يتحدد باعتباره ممثلا ومُعبرا عنه داخل العلامة⁽²⁴⁾. إن حدود تأويله مرتبطة بمعطيات الموضوع المباشر. وعناصر تأويله ليست سوى ما هو معطى داخل العلامة بشكل مباشر. وما ينتجه من معنى لا يتجاوز حدود التجربة المباشرة التي تتطلبها الإدراك المشترك. إن وظيفته الأساسية هي إعطاء الدلالة نقطة الانطلاق، أي إدخال الماثول داخل سيرورة السميوز. «ذلك أن المدلول الخاص للعلامة هو إحساس ينتجه هذه العلامة. فهناك دائما إحساس نؤوله في نهاية الأمر باعتباره

(24) Peirce cité in

Calvet de Magalhães (Theresa): *Signe ou Symbole, Introduction à la sémiotique* de C S Peirce Ed Cahay 1981 p 174

دليلا على أننا فهمنا الأثر الخاص للعلامة، حتى وإن كان أساس الحقيقة فيه ليس صلبا». (25).

إن المؤول المباشر لا يقول أي شيء خارج الحدود التي رسمها معطيات الموضوع بشكل مسبق. فالجملة (الواقعة بصمة عامة) تحتوي لحظة إنتاجها على معلومات أولية مفصلة عن أي سياق. إنها تسمير بالثبات و "الموضوعية"، لأنها توجد خارج الشخص الذي يقوم بالتأويل. وهذا الافتراض الأساس هو الذي يجعل من مؤولين عديدين يعتقدون في طريقة إنتاجهم للمؤولات الديناميكية ولكنهم يتفقون حول المنطلق الدلالي الأول. ويعد المؤول المباشر، بهذا المعنى، اللحظة البدئية داخل سيروية تأويلية هي نظريا، حسب بورس، لامتناهية.

ففي المثال السابق "الشمس ررقاء"، لا يتجاوز المؤول المباشر حدود القول: لقد أسندت صفة الزرقة إلى الشمس. إن هذه القراءة تكتفي بتحديد ما هو معطى بشكل مباشر، أي منمصل عن الذات، ولا دور لهذه الذات فيما هو موجود خارجها. فهاته الأشياء هنا لا أقل ولا أكثر، إنها موجودة ولا يقوم المؤول المباشر إلا بوصفها وتحديد ما.

المؤول الديناميكي

«إن المؤول الديناميكي هو الأثر الفعلي الذي تحدده العلامة»
أو هو «الأثر الذي تولده العلامة بشكل فعلي في ذهن» (26)

(25) بورس «المرجع السابق ص 130

(26) نفسه ص 174

وبعبارة أخرى، فإن المؤول الديناميكي هو كل تأويل يعطيه الدهس فعليا للعلامة.

انطلاقاً من هذا التصور، فإن المؤول الديناميكي يُؤسس على أنماط المؤول المباشر ولا يمكن أن يوجد إلا من خلال وجود الأول. فعندما يتخلص المؤول الديناميكي من مقتضيات المؤول المباشر، فإنه يطلق نحو آفاق جديدة تضع الدلالة داخل سيروية 'اللامتناهي'. إننا مع المؤول الديناميكي نخرج من دائرة التعمين لندخل دائرة التأويل بمفهومه الواسع.

إن الانتقال من المؤول المباشر إلى المؤول الديناميكي، معناه الانتقال من مستوي دلالي (معنى العلامة كما هو معطى بطريقة مباشرة) إلى ما يؤسس ديناميكية التأويل إن صفتي "المباشر" و "الديناميكي" تحيلان على فعاليتين مختلفتين فإذا كانت الأولى تشير - بشكل أو بآخر - إلى التعرف على ما هو موجود فعلاً، أي ما يدخل ضمن المشترك بين المثلثين، فإن الديناميكية، على العكس من ذلك، تستدعي دحول الذات المتكلمة كمحصل يعطي التأويل كافة أبعاده. إنها تقوم باستحضار المخزون الثقافي الذي يحيط بالعلامة من كل الجوانب. وباختصار إنها تتطلب تحيين كل العناصر الكفيلة بإعطاء تأويل يتجاوز ما هو مثبت بشكل مباشر داخل العلامة.

ومن جهة ثانية، فإن دخول المؤول الديناميكي سيحول السميوز إلى سلسلة لا تنتهي من الحالات - من علامة إلى علامة ضمن سيروية تأويلية لا تتوقف عند نقطة بعينها. فمن أجل تحديد مؤول

علامة يجب فعل ذلك من خلال علامة أخرى وهكذا دواليك والتبحة أننا أمام سيروية مميوزية لامتناهية تعد وبشكل مفارق الصمائه الوحيدة لتأسيس نسق مميولوجي يوضح نفسه بنفسه، من خلال إمكاناته الداتية ومن خلال أنساق قلب متتالية يشرح بعضها بعضا. «وقد يبدو هذا التداول اللامحدود للعلامات أمرا مقلفا، إلا أنه يعد، مع ذلك، الشرط الطبيعي للتواصل وهكذا عوض أن يلعب من خلال التدرج بميتافيزيقا المرجع، علينا أن نعمل على تحليله من خلال طبيعته تلك». (27).

إن سلسلة الإحالات هاته تجد تفسيرها في التعريف الذي يعطيه بورس لفعل السميوز ككل كما يعود إلى نمط اشتغالها. فالعالم عند بورس بكل موجوداته الواقعية "و" المنخيلة "يشغل كعلامات. وهذا العالم لا يدرك إلا باعتباره سلسلة من الأنساق، وكل نسق يضم في داخله نمطا مزدوجا من الإحالات: إحالات داخلية تخص النسق في ذاته، وإحالات خارجية تحيل الأنساق على بعضها البعض. ومن ثم فإن النظر إلى السميوز كعمل لا ينتهي، يعد مساهمة في نظرية اللغة. ومن خلال هذا التصور متبدو اللغة، من حيث خصائصها الداتية، كممارسة إنسانية بشكل التاريخ، باعتباره رمية إنسانية، أمق تحيينها. فحقيقة اللغة لا تكمن في الكشف عن كون مرجعي أو ذهني معطى بشكل نهائي. إن اللغة ليست حزاناً ولكنها إنتاج، والمعنى لا يوجد خارج اللغة، بل يوجد في فعل الإبلاغ نفسه، أي في الكلام وفي الإنتاج. وغياب مؤول نهائي،

عوض أن يشكل إحباطا دائما، فإنه بشكل الشرط الأساس لإمكان فعلي للغة بصمتها واقعة إنسانية. (28)

كيف تتم الإحالة إذن من المؤول بأنواعه وبين الموضوع بأنواعه؟ وبعبارة أخرى، كيف ينتقي المؤول موضوعاته وما هي مقتضيات هذه الإحالة داخل سيرة التأويل اللامتناهية؟

إذا كان المؤول الديناميكي هو سيرة تدللية لامتناهية، فإن هذه السيرة تنطور، في علاقتها بالموضوع، في اتجاهين، وذلك وفق منطق الإحالة من ماثول إلى موضوع.

فإذا كان المؤول هو أداة الربط الأساسية بين عنصرين، فإن العلاقة التي يقيمها الماثول مع موضوعه قابلة للتغير وفق ما إذا كان الموضوع مباشرا أم ديناميكيا ويمكن أن نحدد سلسلة العلاقات والترابطات بين الموضوع والمؤول على الشكل التالي:

- إذا كان الموضوع مباشرا وكان المؤول مباشرا، فإن القراءة لا تتجاوز حدود ما هو معطى، "فالشمس زرقاء" تقرأ فقط كموضوع أول: شمس = حجم، موضوع ثان زرقاء = لون، أسندت الزرقة إلى الشمس.

- أما إذا كان الموضوع مباشرا والمؤول ديناميكيا، فإن هذا المؤول لا يأتي إلا بالعناصر التي لها علاقة مباشرة مع العلامة وتعمير آخر، فإن المؤول الديناميكي لا يأتي إلا بالمعلومات التي تفسر إمساد صفة الزرقة إلى الشمس. وسيكون التأويل منحصرا في

هل الأمر يتعلق باستعارة تعبر عن الحالة النفسية للـب؟ أم يتعلق بطريقة تصويرية للقول إن الجو غائم (كاروتيني). وفي هذه الحالة فإن المؤول الديناميكي يكون من طبيعة افتراضية (abduction).

- أما إذا كان الموضوع ديناميكيًا وكان المؤول ديناميكيًا، فإن هذا المؤول سيفرف معلوماته من السياق السابق للموضوع. وفي هذه الحالة سيشير المؤول إلى كل المعلومات السابقة، مثل الشكل أو ذلك، على تفسير فكرة إسناد الزرقة إلى الشمس. (29) وبما أنه يستدعي ما يسميه بورمن بالتجربة المحيطة، فإن المؤول الديناميكي في هذه الحالة يكون من طبيعة استقرائية (induction).

وفي ختام هذه المقرة، سنحاول تقديم ملاحظتين أساسيتين. تتعلق الأولى بالمرق الموحود بين المؤول المباشر والمؤول الديناميكي من جهة، وبين الموضوع المباشر والموضوع الديناميكي من جهة ثانية. وتعلق الثانية بمسئويات الدلالة كما نحددتها مقولتنا المؤول المباشر والمؤول الديناميكي وعلاقة هاتين المقولتين بتصورات أخرى حول نفس الموضوع.

ففيما يتعلق بالملاحظة الأولى، فإن التفاضل بين المقولتين سيؤدي حتماً إلى كثير من سوء الفهم، نتيجة وجود تدخل (ظاهري فقط) بين الموضوع والمؤول، في حين أنهما محتملان احتلافاً جذرياً. ويمكن تحديد هذا الاختلاف في نقطة مركزية تلخص في كون الموضوع يعود إلى معطيات موجودة قبل تدخل الشخص المدرك، وهذه المعطيات قابلة للوصف بشكل مباشر كما

(29) نفسه ص 32

هو الشأن مع الموضوع المباشر ، وبشكل غير مباشر كما هو الشأن مع الموضوع الديناميكي . إن الموضوع على هذا الأساس ينظر إليه كسلسلة من المعطيات الموجودة خارج فعل التأويل وسابقة عليه .

أما المؤول فهو الأداة التي يتم عبرها الكشف عن هذه المعطيات وبعبارة أخرى ، إنه زاوية النظر التي تجعل هذا القارئ يدرك هذه المعطيات في حين تغيب عن قارئ آخر . فنحن المعطيات الموجودة داخل نص ما قد تولد سلسلة من القراءات التي تتراوح بين القراءة السطحية والقراءة العميقة وبكلمة واحدة ، إن الأمر يتعلق بالتمييز بين المعطيات الموصوفة وبين الفعل الواصف .

أما الملاحظة الثانية فتعد امتدادا للأولى فالتمييز المشار إليه ، سيقودنا إلى تناول النقطة الثانية ، وفي ضوء نتائج يمكن الانتقال إلى عقد مقارنة بين تصور بورس والتصورات الأخرى التي تناولت نفس القضية .

إذا كنا قد حددنا المؤول كقراءة أو زاوية نظر ، فسيكون بإمكاننا أن نرد المؤول المباشر إلى مقولة التقرير (dénotation) ، ونرد المؤول الديناميكي إلى مقولة الإيحاء (connotation) كما صاغهما هلمسليف (Hjelmslev) وطورهما واستثمرهما بارث (Barthes) في تحليلاته المتعددة . ذلك أن التقرير يعرف كمنى مباشر ، أي كسلسلة من القيم التي تعد عناصر أساسية في تحديد دلالة لفظ ما ، ويعرف الإيحاء كسلسلة من القيم التي تضاف إلى ما هو أساسي داخل هذا المعنى .⁽³⁰⁾

(30) انظر مثلا .

المؤول النهائي

إذا كان المؤول الديناميكي هو المسؤول عن الدلالة لأنه هو الذي يوفر المعلومات الضرورية لعملية التأويل بحصر المعنى، فإنه يقوم في نفس الوقت بإدماج الدلالة داخل سيرورة اللامتناهي والسيرورة السميائية هي سلسلة من الحالات اللامتناهية التي لا يمكن، نظرياً على الأقل، أن تتوقف عند نقطة معينة. ذلك أن كل تعيين هو في نفس الوقت تكثيف للعمل في أشكال تحمل في داخلها إمكان تحقيقها جزئياً أو كلياً «إلا أنها تعد في الممارسة سيرورة محدودة ونهائية. إنها تختصر داخل العادة، العادة التي نملكها في إسناد هذه الدلالة إلى تلك العلامة داخل سياق مألوف لدينا» (31).

وبناء عليه، فإن وظيفة المؤول النهائي هي إيقاف حركية هذه السيرورة في أفق تحديد دلالة ما داخل نسق معين. إنها الرعية في الوصول إلى دلالة معينة انطلاقاً من سيرورة تدليلية. ومن هنا يكون المؤول النهائي هو ما تريد العلامة قوله أو ما تستدعيه، أي ذلك «الأثر الذي تولده هذه العلامة في الدهن بعد تطور كاف للمعركة» (32). فداخل سيرورة تأويلية معينة يفتح العمل التأويلي إلى تثبيت هذه السيرورة داخل نقطة معينة تعد أملاً نهائياً داخل مسار تأويلي يقود من تعديد معطيات دلالية أولية (مؤول مباشر) إلى إثارة سلسلة من الدلالات (مؤول ديناميكي) إلى تحديد نقطة إرساء دلالية (مؤول نهائي).

(31) إيمرات دسملت المرجع السابق ص 42

(32) Calvet de Magalhães ص 174

وبعد هذا الأق شكلا نهائيا لهذه السيرة. « فعندما يقول متحدث ما " أتكلم عن المؤول بالمفهوم البورسي للكلمة " فإنه يوضح للمستمع ، الذي يعرف نظرية بورس ، السياق الخاص الذي تنتمي إليه هذه الكلمة بهدف إثارة المؤول المنطقي النهائي»⁽³³⁾

إن هذا التحديد يفترض أن وجود المؤول رهين بالسياق الخاص والسياق الخاص هو وحده الكفيل بتحديد " تأويل نهائي " إذا جار التعبير . وبعبارة أخرى ، فإن السيرة التأويلية تخلص من إمكاناتها عندما تحدد لنفسها اختيارا يعتبر مسارا تأويليا يفود إلى تحديد شكل تستقر عليه الدلالة " النهائية " .

ومن جهة أخرى يجب التأكيد أن كلمة " نهائي " لا تعني - لا من قريب ولا من بعيد - النهائية داخل الزمن ، بحيث إن الدلالة التي يحددها المؤول النهائي ستشتغل كدلالة كلية وشاملة وأبدية تتحدى الزمان والمكان . فالمؤول النهائي هو كذلك داخل سيرة بعينها ، أي داخل سلسلة الإحالات التي يعرضها سبق دلالي ما ، ذلك أن ما يتم تثبيتته كدلالة نهائية ، قد يصبح نقطة انطلاق لسيرة جديدة من الإحالات . إنه يتجس سلسلة من التثبيتات التي تدرج التأويل داخل مسارات معينة ، وكل مسار يملك قوائمه (سياقه) الخاصة في الإحالة وفي إنساح المعاني . « فالعادة تعجمد مؤقتا الإحالة اللامتناهية من علامة إلى علامة أخرى لكي يتسنى للمتكلمين الاتفاق سريعا على واقع سياق إبلاغي معين . إن العادة تثل السيرة السميائية ، إنها عالم " الأفكار الجاهزة " . ولكن العادة هي وليدة أفعال علامات

(33) إيمراب دسملد هسه ص 42

مضافة. إن العلامات هي التي تؤدي إلى تدعيم أو تغيير العادات»⁽³⁴⁾. فالعلامة عندما تعين، وعندما تنهي مسارا تأويليا تموت، وموتها يخلق العادة، والعادة هي ما تتركه العلامة بعد موتها.

إلا أن هذا المؤول ليس من طبيعة واحدة، إنه ينتج آثارا معوية مختلفة ومتفاوتة. فيما أنا «نؤول دائما وفق عايات خارج سميورية»⁽³⁵⁾ فإن المؤول قد ينتج دلالات تختلف من غاية إلى أخرى. وهكذا فإن بورس يقسم هذا المؤول إلى ثلاثة أقسام مرتبطة جميعها بالأحكام المسطقية التي يستند إليها الفكر الإنساني من أجل إنتاج معارفه.

- مؤول نهائي رقم 1، ويشكل عنده عادة عامة أي مجموعة من القيم والأحكام العرفية والتقاليد والعادات. فكل عادة ليست سوى تكثيف لسلسلة من السلوكات المتشابهة التي تتكرر في الزمان وفي المكان وتكرارها هو الذي يحولها إلى قالب جاهز، أي إلى أفكار مسكوكة تتحد طابعا لارمنيا لكي تعود من جديد لتمارس سلطتها على أنواع السلوك المردي. فالسلوك الفردي يخضع - في تحفته - لمودح عام تشبه التجربة الجماعية لكي تتح التطابق بين الفرد والمجتمع وبناء عليه، فإن المؤول النهائي هو ميدان الإيديولوجيا.

- المؤول النهائي رقم 2 يعتبر عادة مخصصة، إنه يشكل المعرفة التي يستند إليها شخص ما في تخصص ما من أجل إصدار

(34) منه ص 42

(35) أمبيرتو إيكو، التأويل بين السمات والتفكيكية، ترجمة سعيد سكرات، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000، ص 131

حكم أو إجراء تجريبية. إنه مؤول خاضع للمراقبة، ويمكن التأكد من صحته أو من خطئه، على عكس المؤول النهائي رقم "1" الذي لا يمكن مراقبته، ولا يمكن أن يخضع للتدقيق العلمي (من يستطيع إقناع مجموعة بشرية ما بأن هذه العادة أو تلك عادة فاسدة؟)

- المؤول النهائي رقم 3 ويعتبر مؤولا نسقيا، فهو معقول من أي سياق، ويوجد خارج أي تحديد عرضي، إنه يعود إلى الأحكام الفلسفية والطريات المنطقية الكبرى. فلكي يوجد لا يحتاج هذا المؤول إلى سياق خاص.

إن أنواع المؤول هاته تعد، في واقع الأمر، نقطة إرساء دلالية مصدرها مؤول ديناميكي سابق. وهكذا إذا كانت التجربة تفقدنا افتراضيا من المؤول الديناميكي رقم (1) إلى المؤول النهائي رقم (1)، وتفقدنا قياسيا من المؤول الديناميكي رقم (2) إلى المؤول النهائي رقم (2)، فإن المؤول النهائي رقم (3) لا يحتاج إلى أي مؤول ديناميكي، فهو خارج السياق. إنه لا يستدعي أية تجربة لكي يوجد إنه استنباطي، كما هو الشأن مع الأساق الشككية الكبرى. (36)

وكما يبدو من خلال هذه التحديدات الخاصة بالعلامة ومكوناتها ومطاشتغالها، فإن السميز، في تصور بورس، تتأرجح بين قطبين متقابلين. فهي من جهة تحيل على لانهائية الإحالات، كما يبدو ذلك من خلال فعل المؤول الديناميكي. وهذا ليس عريبا في فكر بورس. فعن هذا التصور انبثقت إحدى الأفكار الهامة

المائلة " «مأن كل فكر هو فكر ناقص ويحتوي على الضمني والمحتمل الذي يفترض فكر آخر» (37) سلسلة الحالات هاته هي ما يجعل من الفكر مستعصيا على الضبط والإمساك فكلما اقتربت الذات من فك لعز فكري ما لاح في الأفق فكر آخر يحتاج إلى تمثيل جديد وهكذا دواليك .

ومن جهة أخرى تحيل هذه السميور على ضرورة إفعال السلسلة وإقامة صرح للمعنى يفود إلى إنتاج معارف متطابقة أو مسجعة مع التقاليد الثقافية لمجموعة بشرية ما . فحين يزول عادة " انطلاقا من وجود غايات مفعية " تظمن إليها الذات . «والغاية من هذه السيرة (سيرة المؤولات) هي إقامة معنى ، أي إسناد موضوع إلى الماثول» (38) .

إن السميوز في الحالتين معانعد ضمانة على انفلات العلامة من رتبة الوصفي والتعيني والمباشر ، وارتماؤها في أحضان اللامحدد واللابيني ، وذاك هو الإسهام الحقيقي الذي جاء به بورس في نظرية التأويل

(37) Joseph Chenu - Peirce, Textes Anticartésiens, éd Aubier, 1984, p 92.

(38) Marty (Robert) La théorie des interprétants, Langages 58 p 39.

الفصل الثالث

التوزيع الثلاثي للعلامة

إن العلامة، كما سبق أن رأينا، توضع للتداول ثلاثة عناصر. ماثولا يقوم بالتمثيل (أول) وموضوعا للتمثيل (ثان) ومؤولا بضمن صحة العلاقة بين الماثول والموضوع (ثالث). ولا يمكن أن يستقيم وجود أية سيرورة سميائية إلا من خلال وجود هذه العناصر الثلاثة التي تشكل في تضافرها السيرورة التي يطلق عليها بورس السميوز؛ والسميوز هي المدخل الرئيس من أجل إنتاج الدلالات وتداولها. وهذه العلاقة هي من الجدة والأصالة لدرجة أنها نحيلنا على سيرورة تدليلية لا متناهية تفترض، من جهة، أن سلسلة الإحالات لا يمكن أن تتوقف نظريا عند نقطة محددة، فالماثول يحيل على موضوع عبر مؤول، ليتحول هذا المؤول إلى ماثول جديد يحيل على موضوع آخر عبر مؤول جديد وهكذا إلى ما لانهاية. فإذا كان بالإمكان تصور المنطلق البدئي لهذه السيرورة، فإن نقطة النهاية غير محددة. فلا شيء يستطيع أن يوقف سلسلة الدلالات التي تطلق عنانها حركة التمثيل الأول.

إلا أن هذه العلاقة تفترض، من جهة ثانية، أن كل عنصر داخل هذه العلاقة الثلاثية يتحول بدوره إلى علامة قادرة على إنتاج بنية نستوعب هذا التوزيع وتقنيه. فبالإمكان عزل كل عنصر من هذه

العناصر الثلاثة والنظر إليه في ذاته . وهنا أيضا ستكشف لنا نظرية المقولات عن قيمتها الاستكشافية الأصلية، حيث لا تكتفي هذه المقولات بتقديم تحليلات قصوى تضع العلامة بديلا كليا لما يوجد خارجها، بل تخضع العلامة ذاتها إلى تقسيمات فرعية مستمكتة من إعناء رؤيتنا لمناطق متنوعة في إدراك ما يحيط بنا .

وهكذا فالمكونات الثلاثة (الماثول والموضوع والمؤول) يمكن أن يُنظر إليها في ذاتها من زوايا ثلاث . رواية المعطيات النوعية الشعورية (الأولانية) وزاوية التحقق المعرد (الثانية) ورواية القانون العام (الثالثة)

ومن هذا المطلق يمكن تصور سلسلة من التقسيمات الفرعية التي تخضع لها العلامة لتتح، مع كل توريع فرعي، سلسلة من الآثار المعنوية الخاصة بالطريقة التي نتصور من خلالها الظواهر فإذا عدنا إلى نظرية المقولات العامة، ونظرنا إلى كل مقولة من رواية أولانيتها وثانيانيتها وثالثانيتها فإسنا سنحصل على سلسلة من العلاقات القائمة على بناء ثلاثي تتوزع انطلاقا منه الأولانية إلى ثلاثة أقسام فرعية، ونفس الأمر يصدق على الثانية والثالثة .

إن هذا المبدأ يحكم أيضا العلامة بعناصرها الثلاثة . فالماثول يمكن النظر إليه كأولانية وكثانيانية وكثالثانية . وهو نفس التقسيم الذي يخص له كل من الموضوع والمؤول . استنادا إلى هذا، فإن «العلامات قابلة للتقسيم وفق ثلاث ثلاثيات .

- أولا وفق ما إذا كانت العلامة في ذاتها مجرد نوعية بسيطة أو وجودا واقعا أو قانونا عاما .

ثانياً وفق ما إذا كانت علاقة هذه العلامة بموضوعها تكمن في أن لها بعض الخصائص في ذاتها، أو تكمن في علاقة وحدانية مع موضوعها، أو لها علاقة مع مؤولها.

- ثالثاً وفق ما إذا كان المؤول يمثل هذه العلامة كإمكان، أو كواقعة، أو كعلامة عقلية. (1).

وهكذا ووفق التصور البورسي لهذا التوزيع، فإن الماثول يمكن أن يحيل على نفسه من زاوية الأولانية والثانيانية والثالثانية. ففي الحالة الأولى يكون علامة نوعية (qualisigne)، وفي الحالة الثانية يكون علامة مفردة (sinsigne)، أما في الحالة الثالثة فيسيطر إليه باعتباره علامة معيارية (légisigne).

ويمكن للماثول في مرحلة ثانية أن يحيل على موضوعه من زاوية الأولانية والثانيانية والثالثانية. ففي الحالة الأولى يشكل الموضوع أيقونا (icône)، وفي الثانية يشكل أمانة (indice)، أما في الثالثة فيسيطر إليه باعتباره رمزا (symbole).

ويمكنه في مرحلة ثالثة أن يحيل على المؤول من زاوية الأولانية والثانيانية والثالثانية. ففي الحالة الأولى يكون المؤول حبرا (rhème) وفي الثانية تصديقا (dicisigne) وفي الثالثة حجة (argument).

ولا تشكل هذه الثلاثيات تصميما مطلقا يجعل من كل ثلاثية مشتعل في انفصال عن الأخرى، بل الأمر خلاف ذلك. إذ يمكن

نصور تأليفات جديدة تتكون عموديا من التقسيمات الفرعية الثلاثة. وهكذا يمكن أن نتصور تأليفا يجمع بين العلامة النوعية والأيقون وبين العلامة النوعية والأمانة. وكمثال على ذلك * فإن الإحساس المتولد عن عزف قطعة موسيقية يشكل أيقونا لهذه القطعة الموسيقية. ورائحة زهرة هي أيقون لهذه الرائحة (2) وهكذا يمكن أن نستخرج علامة نوعية هي ذلك الإحساس الغامض والعام الذي يولده عزف تلك القطعة الموسيقية، وفي نفس الآن نحن أمام أيقون، ما دام العزف في ذاته لا يشبه إلا نفسه. ولناحد الآن كل ثلاثية على حدة لنحدد عناصرها وموقعها من العناصر الأخرى.

الثلاثية الأولى

العلامة النوعية

تحدد العلامة النوعية عند بورس من خلال خاصيتها كوعية أو إحساس عام. إنها نوعية تشتغل كعلامة ولا يمكنها أن تشتغل كعلامة قبل أن تجسد في واقعة ما. ولكن تجسدها لا علاقة له بطاقتها كعلامة. (3) فكل النوعيات مفصلة من سياقها، وكل الأحاسيس مفصلة عن أسناد تجسدها يمكن أن تشتغل كعلامة. فذلك الصوت الذي يمزق الظلام ولا يستطيع تحديد مصدره ولا سببه يشتغل كعلامة نوعية، وهذا اللون في ذاته مفصول عما يجسده

(2) Nicole Everaert-Desmedt, Le processus interprétatif, Introduction à la sémiotique de C. S. Peirce, éd. Mardaga éditeur, 1990, p. 53.

(3) نفسه ص 139

بشغل كعلامة نوعية. إن هذه الأسناد لا تدل من خلال تجسدها في موضوع ما أو شخص ما أو مقام ما، وإنما تدل فقط من خلال أولياتها، أي من خلال وصفتها كنوعية أو كإحساس.

«بالإمسك بنوعية ما والتعرف عليها باعتبارها كذلك، أي جعلها تشتغل كعلامة نوعية غير ممكن إلا من خلال تأملها ككلية، أي كأول، أي عرلها عما يحيط بها، دونما اعتبار للظروف الزمانية والمكانية التي تظهر داخلها هذه العلامة»⁽⁴⁾ فالنوعيات لا تشتغل كعلامات إلا من خلال أولياتها فلسفا في حاجة إلى تحديد أي شيء آخر لنحول إحساسا عاما أو نوعية عامة، أي إلى علامة، لأن الانتقال إلى شيء آخر قتل لهذه العلامة.

ولهذا فإن ذلك الإحساس الغامض الذي يستحوذ علينا ولا نستطيع تحديد مصدره يشكل في عرف بورس علامة نوعية. «فذلك الأعمى قد أدرك جيدا بريق اللون القرمزي عندما شبهه بصوت البوق»⁽⁵⁾، فخلق تداخلا بين أشياء لا تنتمي إلى نفس النوع، ويتعلق الأمر بالإمسك بجوهر عام وموغل في التجريد قد لا نتوصل أبدا إلى تحديد كنهه. إن هذا الخلط هو الذي يولد العلامات النوعية.

ويقدم لنا جيل دولوز تجسيدا رائعا لطبيعة هذه العلامات من خلال خلق حوار خلاق بين اللوحة والموسيقى، فرغم أن كلاً منهما ينتمي إلى سجل فني خاص له لغته وأدواته وطرقه في التعبير، إلا أنهما مع ذلك قد يحيلان على نفس الأحاسيس، وهي أحاسيس

(4) إيفرانت ديسمونت المرجع السابق ص 49

(5) Nicole Breuer-Dessmets. Le processus interprétatif, p 49

تشكل علامات نوعية في السجل السمعي لبورس . فالموسيقى في عرف دولوز قد «تحويل قوى لاصوتية إلى قوى صوتية، وتحويل اللوحة قوى لامرئية إلى قوى مرئية . وأحيانا يتعلق الأمر بنفس القوى الزمن المتميز بكونه لا صوتيا ولا مرئيا . كيف يمكن رسم أو إسماع الزمن ؟ وكيف يمكن تصوير قوى أولية كالصعظ والسكون والجدلية والانحداب والإنبات . وعلى العكس من ذلك، قد تكون القوى اللاحسية لها ما جزءا من معطيات فن آخر . فكيف يمكن رسم الصراح أو الصوت مثلا ؟ . وعكس ذلك، كيف يمكن إسماع صوت الألوآن»⁽⁶⁾ وماهية الفن ليست سوى «الإمساك بهذه القوى داخل شبكة الرمزية وإسقاطها على شكل رموز . إن الأثر الفني هو دائما حصيلة محاولة تجسيد بعض القوى، وتجسيد القوى المحتملة : أي العلامات النوعية .»⁽⁷⁾

إن الإمساك بهذا النوع من العلامات والتعرف عليه يفيدنا كثيرا في فهم مجموعة من العناصر الفنية التي لا تنتمي إلى السجل اللغوي كالفوتوغرافيا والصون التشكيلية والموسيقى . فهذه العنود تعمل جاهدة على أسر طاقة غير مدركة من خلال تصنيف مفهوم واضح لكي تحولها إلى مادتها الرئيسة من أجل إنتاج دلالاتهما .

العلامة المفردة

إن الإحالة الثانية (إحالة الماثول على نفسه من خلال الثنائية) يصع أمامنا نوعا جديدا من العلامات، ويتعلق الأمر بالعلامات

Jilles Deleuze, cité par, Nicole Everaert-Desmedt: Le processus interprétatif (6) prélatif, p 110

Nicole Everaert-Desmedt: Le processus interprétatif, p 110 (7)

المفردة. وكما تشير إلى ذلك التسمية، فإن الأمر يتعلق بعلامة محلفة اختلافا جندريا عن العلامة السابقة. فالأولى عامة والثانية خاصة، والأولى إمكان والثانية تحقق، الأولى لا حدها ولا فاصل، أما الثانية فمحددة في الزمان وفي المكان. وهذا ما يعبر عنه جليا التعريف الذي يعطيه بورس لهذا النوع من العلامات: «العلامة المفردة (حيث إن \sin تدل على ما يحدث مرة واحدة فقط مثل *simple* . *singulier* باللاتينية *semel*) هي شيء أو حدث موجود فعلا يشغل كعلامة. ولا يمكن أن يكون كذلك إلا من خلال نوعياته، بحيث إنه يستدعي نوعية أو بالأحرى مجموعة من العلامات النوعية. إلا أن هذه العلامات هي من طبيعة خاصة، ولا تشكل علامة إلا من خلال التجسيد الفعلي»⁽⁸⁾.

إننا مع العلامة المفردة نتقل من النوعية مظهرا إليها ككلية، إلى الوجود الفعلي مظهرا إليه كسياق خاص. فالسياقان الزماني والمكاني هما المولدان للعلامة المفردة. فهذا الشيء المعلق بهذه الطريقة على الحائط يشغل كعلامة مفردة، وتلك الجملة التي يطقها روج ما أمام روجته ' أنت طالق ' تشغل كعلامة مفردة. وكذلك الحكم الذي يطق به القاضي في المحكمة. فهذه الوقائع تشتمل كعلامات مفردة لأنها محددة سياق خاص، وغياب هذا السياق يبرع عنها صفة العلامة. إنها من هذه الزاوية تجسيد لسلسلة من العلامات النوعية داخل سياق محدد. وبعبارة أخرى، «إن العلامة المفردة لا تشغل كعلامة إلا في حدود تجسدها داخل واقعة

(8) بورس المرجع السابق ص 193

خاصة ومحددة ("هنا" و"الآن")، إنها تشتغل كمائول لا من خلال العلامات النوعية، بل من خلال الفردنة الخاصة والملموسة التي تمنح لهذه العلامات⁽⁹⁾.

إن السياق الخاص هو نقبض الامتداد الذي تحيل عليه الحالات العامة. فالمسندسات كثيرة، وحالات الطلاق كثيرة أيضا، وما أكثر الأحكام التي يصدرها القضاة، إلا أن ما يشكل العلامات المفردة حقا هو النسخة. فالنسخة هي المفرد والفريد والخاص ولهذا فإن كل علامة مفردة هي أيضا نسخة لعلامة معيارية كما سنرى في الفقرة المقبلة. ولقد كان الرومنسيون يمجّدون الحالات المفردة ويعتبرونها أساس إبداعهم فهذه الرردة الملقاة على الجسر، وهذا الوجه الحزين في هذه الراوية من الشارع، وذلك المسدس المعلق هنا على هذا الجدار، هذه كلها حالات تنزع الشيء من امتداده والحد من رتابة المعاد والمكرر والمألوف لكي تمنحه خصوصية إن كل علامة مفردة هي نسخة خاصة، وحال دحولها إلى العام تصبح علامة معيارية.

العلامة المعيارية

إن الحالة الثالثة تتزاح بنا عن العام الغامض والمنسب كما هو الشأن مع العلامة النوعية، كما تتزاح بنا عن المفرد والخاص والمتحقق العيني. إن الحالة الثالثة تخرجنا صمغ القايوي العام فالسد هو القاعدة والعانون. ولهذا فإن سد العلامة المعيارية هو القانون والقاعدة لا الشعور والنوعية، ولا النسخة المفردة. إن

(9) Enrico Carotini: L'Action du signe, éd Cabay, Bruxelles, 1984, p 40

«العلامة المعيارية هي قانون يشتغل كعلامة وهذا القانون هو في الأصل نتاج الإنسان، وكل علامة عرفية هي علامة معيارية وليس العكس». إن العلامة المعيارية ليست موضوعا خاصا، ولكنها نوع عام، نوع يدل من خلال ما تم التعارف عليه، وكل علامة معيارية تدل من خلال تجسدها في حالة خاصة أطلق عليها نسخة⁽¹⁰⁾

إن كل ما يشتغل كقانون عام، أي كقاعدة معترف بها جماعيا يشتغل كعلامة معيارية. فكلمات اللسان تشتغل كعلامات معيارية، وكل نسخة - أي كل تحقق لهذه الكلمة أو تلك في هذا السياق أو ذاك - تشتغل كعلامة مفردة. وبناء عليه، فكل علامة معيارية تحتاج، لكي تتجسد، إلى علامة مفردة. إلا أن وجود العلامات المفردة ليس شرطا ضروريا لوجود العلامة المعيارية. فإذا أخذنا حرف الجر " في " مثلا فإننا نصادفها مرات عديدة في الصفحة الواحدة، إلا أنها في كل مرة، أي في كل تحقق مختلفة عن بعضها البعض. وكذلك الأمر، مع الصوت " R " في الفرنسية، فإذا كان بالإمكان تصور صيغة أصلية تعتبر تمثيلا صوتيا أكمل لهذا الحرف على أساسه يتم التعرف على هذا الصوت في كل السياقات، فإن النطق الخاص، يختلف حسب الأعراد والمناطق.

الثلاثية الثانية

إن هذه الثلاثية الثانية تعد من أكثر ثلاثيات بورس انتشارا وذيوعا، بل يمكن القول أحيانا إن أعمال بورس السيميائية احتضرت في هذه الثلاثية. وربما يعود ذلك إلى أن الأعمال التي أنجرت حول

(10) بورس المراجع السابق ص 139

الصورة كانت تتخذ من بعض تصورات بورس منطلقاً لها. إضافة إلى ذلك، فإن هذه الثلاثية تعد من أكثر ثلاثياته استيعاباً وأكثرها نمثلاً للموضوعات الواقعية. فسواء تعلق الأمر بالأيقون أو الأمانة أو الرمز، فإن هذه العناصر الثلاثة تحيل على أنماط كبرى في التفكير الإنساني، ما يتعلق بالتناظر (analogie) والتجاور والعرف والتنين.

الأيقون

إن الإحالة في حالة الأيقون قائمة على التشابه. وهذا ما يقوله بورس صراحة حين يجعل من الإحالة قائمة على وجود عناصر مشتركة بين الماثول والموضوع. فالأيقون هو علامة تحيل على الموضوع بموجب الخصائص التي يمتلكها هذا الموضوع سواء كان هذا الموضوع موجوداً أو غير موجود⁽¹¹⁾. فلا وجود لأي تمييز، على الأقل في الأيقون الخالص، بين الماثول والموضوع الذي يحيل عليه. لذا فالأيقون هو علامة تملك طابعاً يجعل منها دالة حتى ولو غاب موضوعها. مثال ذلك خط بقلم الرصاص يمثل خط هندسياً⁽¹²⁾ وبعبارة أخرى، فإن العلامة الأيقونية هي علامة تملك بعض خصائص الشيء الممثل (في تصور شارل موريس). إن الإحالة حسب هذا التعريف هي إحالة تلقائية وطبيعية. فالماثل يملك في داخله كل عناصر الشيء الممثل. فالصورة - كيها كان نوعها - وكل الرسم البياني وموضوعات العالم تشتغل كأيعونات

(11) C. P. Peirce. *Essays on the sign*, p. 140

(12) بورس، نفسه ص 139

إساع العلامة الأيقونية لا تستطيع أن تميز بين الماثول والموضوع .
إنهما متطابقان .

ويميز بورس بين ثلاثة أنواع من الأيقونات :

- الأيقون / الصورة ، وهو كل الصور التي تحيط بنا والتي نودعها نسخة منا ، والعلاقة هنا قائمة على وجود تشابه بين الماثول وموضوعه . فما تحيل عليه الصورة هو نفسه أداة التمثيل .

- الأيقون / الرسم البياني ، وفي هذه الحالة نكون أمام علاقة أيقونية بين الماثول وموضوعه قائمة على وجود تناظر بين العلاقات التي تنظم عناصر الموضوع وعناصر الماثول ، مثال ذلك البيانات التي تستعملها الإحصائيات ، وكذلك النماذج النظرية في العلوم الدقيقة . (13)

- وهناك الأيقون / الاستمارة ، وفي هذه الحالة نكون أمام شبكة من العلاقات المعقدة فهي تشير إلى إلى الطابع التناظري القائم بين الماثول والموضوع من خلال الإحالة على عناصر مشتركة بين الأول والثاني ، قد يتعلق الأمر بالخصائص وقد يتعلق بالبنية . مثال ذلك صورة شجرة صميرة قد توحى بالطفولة والتشابه هنا لا يتعلق بعناصر محسوسة ومشاركة بينهما بل يتعلق بخصائص مجردة كالطراوة والبصارة والمنفوان . . .

إلا أن هذا التشابه الذي يلمح إليه بورس يخلق الكثير من سوء الفهم . فهل هناك حقا تطابق بين الصورة والشيء الذي تحيل

عليه ٩. رغم أن المقام لا يسمح لنا بتفصيل الحديث عن هذه القضية مستقصر على تقديم التصور الذي يقول به إيكو، وهو التصور الذي تسياه في مجمل دراساتها حول الصورة.

إن إيكو يرفض رفضاً مطلقاً فكرة التشابه هذا. وعوض ذلك يقول بالتسعين المسبق الذي يتحكم في إدراك العلامات الأيقونية. فالأشياء التي تُرى وتُدرك بالعين، أي كل ما يشتغل كعلامات أيقونية، لا ينظر إليها في حرفيتها، وإنما يتم التعامل معها باعتبارها عنصراً منصوباً داخل هذا النسق أو ذاك. من هنا، فإن العلامات الأيقونية تشتغل - رغم كونها محكومة، ظاهرياً على الأقل، بمبدأ التشابه - وفق سنن أيقوني يحدد درجة هذا التشابه ويحد من سلطة الإحالة المباشرة، ومن ثم يحدد سطر إنتاج وإعادة إنتاج عناصر التجربة الواقعية. فإدراك الواقع عبر العلامة الأيقونية لا يتم انطلاقاً مما تشتمل عليه هذه العلامة من عناصر قادرة على إحالتنا على تجربة واقعية، بل يتم عبر معرفة سابقة؛ إنها معرفة تمكنا في الآن نفسه من الإمساك بـ "سنيين". بنية إدراكية متولدة عما توفره العلامة الأيقونية كنموذج ذهني عام، ونية واقعية هي منطلق النمثيل وأصله. وهذا يعني أننا لا نتقل ألباً من الدال الأيقوني إلى ما يوجد خارجه، فنحن دائماً في حاجة إلى وسيط يجعل الرابط بين الطرفين قادراً على توليد دلالة، أي قادراً على الانضواء تحت نسق يمنحه إمكانيات التدليل

ويختصر إيكو طبيعة هذه الإحالة في عنصر واحد هو "سنن التعرف"، فلا يمكن الحديث عن إدراك، ضمن عالم العلامات الأيقونية، إلا انطلاقاً من وجود معرفة سابقة تمكنا من تأويل هذا

العصر أو ذلك وفق انتمائه لهذه الدائرة الثقافية أو تلك. فحسب إيكو
«هناك من أيقوني يقيم علاقة دلالية بين علامة طباعية وبين مدلول
إدراكي مسن بشكل سابق: أي هناك علاقة بين الوحدة المميزة
داخل السن الطباعي وبين الوحدة المميزة داخل سن محسني بعد
إنتاجا لعملية تمثيل سابقة على التجربة المدركة»⁽¹⁴⁾.

الأمانة

إن الماثول داخل العلامة الأمانية يحيل على موضوعه بحكم
التجاور فالأمانة علامة تشير انتباهك إلى وجود شيء ما غير دافع ما
وهذا الدافع لا علاقة له بالتشابه فهو يتم بحكم علاقة مرجعية أشربا
إليها باعتبارها تجاورا ولهذا السبب، فإن الأمانة تفقد مباشرة الطابع
الذي «يجعل منها علامة إذا حذف موضوعها. أما إذا غاب المؤول
فإنها لن تفقد هذا الطابع»⁽¹⁵⁾ وهذا ما يوضحه التعريف التالي الذي
قدمه بورس للأمانة فهي «علامة أو تمثيل يحيل على موضوعه لا
من حيث وجود تشابه معه، ولا لأنه مرتبط بالخصائص العامة التي
يملكها هذا الموضوع، ولكنه يقوم بذلك لأنه مرتبط ارتباطا ديناميا
(بما في ذلك الارتباط المضائي) مع الموضوع الفردي من جهة، ومع
المعنى أو ذاكرة الشخص الذي يشغل عنه هذا الموضوع كعلامة من
جهة ثانية»⁽¹⁶⁾. إن الانتقال من الماثول إلى الموضوع يتم بحكم
التجاور الوجودي لا بحكم القانون أو التشابه. فالدخان دليل على

(14) انظر إيكو La structure absente ص 174 وما بعدها

(15) بورس المرجع السابق ص 140

(16) نفسه ص 158

النار ، رغم عدم وجود أي تشابه بين الدخان والنار . إن الأمارات قد تكون طبيعية وقد تكون اجتماعية وقد تكون لسانية .

وعلى عكس الرمز مثلاً ، فإن الأمانة نحتاج إلى مستند رمائي مكاني هو الذي يحدد لها وجودها . فالدخان أو آثار الأقدام أو الأشياء التي يتركها المجرم في مكان الجريمة ، لا يمكن أن تؤول باعتبارها أمارات إلا ضمن سياق زمكاني بعينه . من هنا كان للأمانة وظيفة مرجعية ، فلقد نُظر إليها دائماً باعتبارها الوسيط المحسوس بين الكائنات البشرية وبين الأشياء

« وإذا كانت العلاقة الأيقونية بين الماثول والموضوع تعد شرطاً أساساً لكل سميوز ولكل تواصل ، لأنها تؤسس لعلاقة تواصلية بين الماثول وموضوعه ، فإن العلاقة الأمانية لا تقل أهمية عن العلاقة السابقة داخل السميوز ، لأنها تمكن من إبلاغ كل ما هو منفصل ومختلف وتكشف عن فحواه ، بل يمكن القول إن هذه العلامة هي شرط إمكانية وجود التجربة ذاتها » . (17)

لتذكر ، في هذا المجال ، دور الأمانة في العرض المسرحي ، فهي من خلال طبيعتها المرجعية تشغل دائماً باعتبارها ما يحيل على السيرة السردية . ولهذا موقعها داخل السميوز موقع أساس . بل يمكن أن نمضي إلى أبعد من ذلك . فاللغة الإيمائية (اللغة الحسدية بصغة عامة) قائمة في جزء هام منها على الأمانة . فغياب هذا المعد داخل التجربة الإنسانية معناه تحويل هذه التجربة إلى كيان أعمى وأخرس وفاقد لكل قدرة على التواصل .

وهنا أيضا يمكن أن نشير إلى إمكانية إعادة النظر في قدرة الأمانة على إنتاج دلالة ما استنادا فقط إلى إمكاناتها كعلاقة قائمة على نوع من التعليل بين الماثول والموضوع . فالمعرفة التي تمدها بها الأمانة معرفة قائمة ، شأنها في ذلك شأن المعرفة التي تأتينا عن طريق الأيقون ، على وجود سنن يمكننا من تأويل الأمانة تأويلا صحيحا . ففي عياب معرفة خاصة بالآثار التي يمكن أن تتركها الأفعى على الرمل ، لا يمكن للمتلقي أن يزول هذه الآثار باعشارها آثارا خاصة بالأفعى . فهذا المتلقي قد يخلص إلى القول إن الأمر يتعلق بـ " حادث طبيعي " على حد تعبير إيكو .

الرمز

إن الرمز ينحدر من طبيعة عامة ومجردة ، إنه ينتمي إلى مقولة الدلثانية ، فهو لا يستند إلى حدث ولا إلى نوعيات أو أحاسيس لكي يوجد ، بل يكتفي بالإشارة إلى القانون والضرورة . ولهذا فإن العلاقة القائمة بين الماثول الرمزي وموضوعه لا تستند إلى التشابه ولا إلى التجاور ، بل تستند إلى العرف الاجتماعي الذي يعد قابو وقاعدة . ولهذا فإن الرمز هو ماثول يكس طابعه التمثيلي في كونه قاعدة تحدد مؤوله . فكل الكلمات والجمل والكتب وكل العلامات العرفية الأخرى تشتعل كرموز . فنحن نتحدث عن كتابة أو نطق كلمة " رجل " ولكننا في واقع الأمر لا نطق ولا نكتب إلا نسخة أو نصيда لهذه الكلمة (18)

فالرمز لا يمكن أن يكون رمزا إلا إذا كان تكثيفا لسلسلة من

السخ السلوكية المتحققة . فلا يمكن للنسخة المفردة أن تكون رمزا ولا يمكن أن يؤدي السلوك الفردي إلى إنتاج رمز . إن الرمز يحتاج إلى زمن ، والوظيفة الرمزية نشأت من تعدد التجارب وتنوعها وتكرارها أيضا «إن الماثول الرمزي هو نفسه ذو طبيعة عامة أو قانون أو علامة معيارية . إنه ليس فقط عاما ومجردا ومحروما من أي سياق ، ولكن موضوعه أيضا يجب أن يكون من طبيعة عامة . أي مضمونا» . (19)

فإذا كانت علاقة الماثول بموضوعه داخل العلامة الأيقونية قائمة على التشابه ، وإذا كانت هذه العلاقة داخل العلامة الأمارية قائمة على التجاور الوجودي ، فإن العلاقة داخل العلامة الرمزية من طبيعة عرفية ، فالأسم والشعوب تخلق ، انطلاقا من تجربتها ، سلسلة من الرموز تستعيد عسرها قيم تاريخها ، فتسقط من خلالها المستقبل وتعلم من خلالها الحاضر .

إن للرمز دورا هاما في تنظيم التحربة الإنسانية . فلكي تُبلغ هذه التحربة وتصبح عامة وكونية تحتاج إلى أن تصب في أبعاد رمزية . «فالرمز يمكن الإنسان من التخلص من التحربة الظرفية والمباشرة ، كما يمكنه من التخلص من الكون المعلق للناظرات فمن خلال الرمز تسرب ذاكرة الإنسان إلى اللغة وعبره يدرج الإنسان رغبت ضمن أفق مشاريعه الخاصة » . (20)

Enrico Carontini L'Action du signe . p 47 (19)

(20) بور من المرجع السابق ص 141

الثلاثية الثالثة

أما الثلاثية الثالثة فتخصص البعد الثالث داخل التجربة الإنسانية، أي ما يتعلق بتلك العملية التي تمكن الكائنات البشرية من التواصل فيما بينها. وهي عياب الثانية لا يمكن الحديث عن أي تواصل. إلا أن الأمر هنا يظل البعد الثالث ذاته. فالمفهومية درجات، لذا فإن ثنائية ذاتها يمكن النظر إليها في أولانياتها وثانياتها وثالثياتها في الحالة الأولى تكون أمام الحبر وفي الثانية أمام التصديق أما الحالة الثالثة فتضعنا أمام الحجة

الخبر

«إن الخبر هو علامة تشكل في علاقتها بموضوعها علامة لإمكان نوعي، إننا ندركها باعتبارها تمثل هذا الشيء الممكن أو ذاك فقط. وإمكان الخبر أن يوفر معلومات ولكنه لا يؤول باعتباره يوفر معلومات»⁽²¹⁾. وبعبارة أخرى، فإن الأمر يتعلق بالبرهنة في حالتها الدنيا. فما دام الحبر يقتصر على ما تقدمه العلامة، فإنه لا يوفر معلومات للتأويل، ولكنه يشير فقط إلى العناصر الأولية التي تتوفر عليها العلامة إنه ما يقابل الحد في القضية كما تتجسد في المنطق. فبالإمكان تصور فعل إسنادي يقوم فقط بإسناد صفة أو فعل إلى كيان ما "أ" هو "س"، ويمكن أن يكون الفعل الإسنادي ثانياً "أ" يحب "س". ويمكن أن يكون هذا الفعل ثلاثياً "أ" يعطي "س" "ح" ومن هذه الراوية فإن الحبر يتطابق مع الفعل الأحادي

(21) دولودال Théorie et pratiques

ولهذا فإن التأويل في علاقته مع المؤول الحبري لا يتجاوز حدود الإمكانيات التي يوفرها الماثول فإذا نطقت كلمة "حصان" أمام شخص لا يعرف الفرنسية وأردت توصيح ما أريد قوله من خلال هذه الكلمة، فإن الدلالة تترك فقط من خلال ربط سلسلة من الأصوات (صورة سمعية) بصورة الحصان. وهذا ما دفع دولودل إلى اعتبار المدلول الموسيري حداً مطابقاً للمؤول الحبري. فالمدلول كما صاعه سوسير لا يتجاوز حدود تعيين مفهوم ذهني هام مرتبط أشد الارتباط بما تدل عليه الكلمة استناداً إلى إمكاناتها الداتية الأولى. (22)

التصديق

«إن التصديق هو علامة تشكل في علاقتها بمؤولها علامة لوجود فعلي (...) إنها تستدعي بالضرورة خبراً كجزء منها لتؤون باعتبارها تشير إلى شيء ما» (23)، وعلى هذا الأساس، فإن العلامة التصديقية في حاجة، لكي توجد، إلى تحديد الماثول داخل وضعية ملموسة تستدعي علاقة بين حدين فلا يمكن للمعنى أن يبقى في حدود ما يعرزه الماثول من معلومات أولية كعناصر لإخبار كاف. إن حالة التصديق تخطو خطوة إلى الأمام وتستدعي إسناداً ثنائياً 'أ' يعصب 'س' وهي هذه الحالة، وكما أوضحنا ذلك من خلال المثال السابق، عوض أن نرسم صورة للحصان نستطيع، على العكس من ذلك، أن نحدد للمستمع الذي لا يعرف العربية وصيغة

(22) بودس نفسه ص 141

(23) Caronini المرجع السابق ص 48

لملموسة : حصانا داخل إصطبل أو حصانا في حلبة سباق أو في أي سباق آخر ، سواء كان هذا السياق واقعيا أو استذكاريًا أو إشاريًا

الحجة

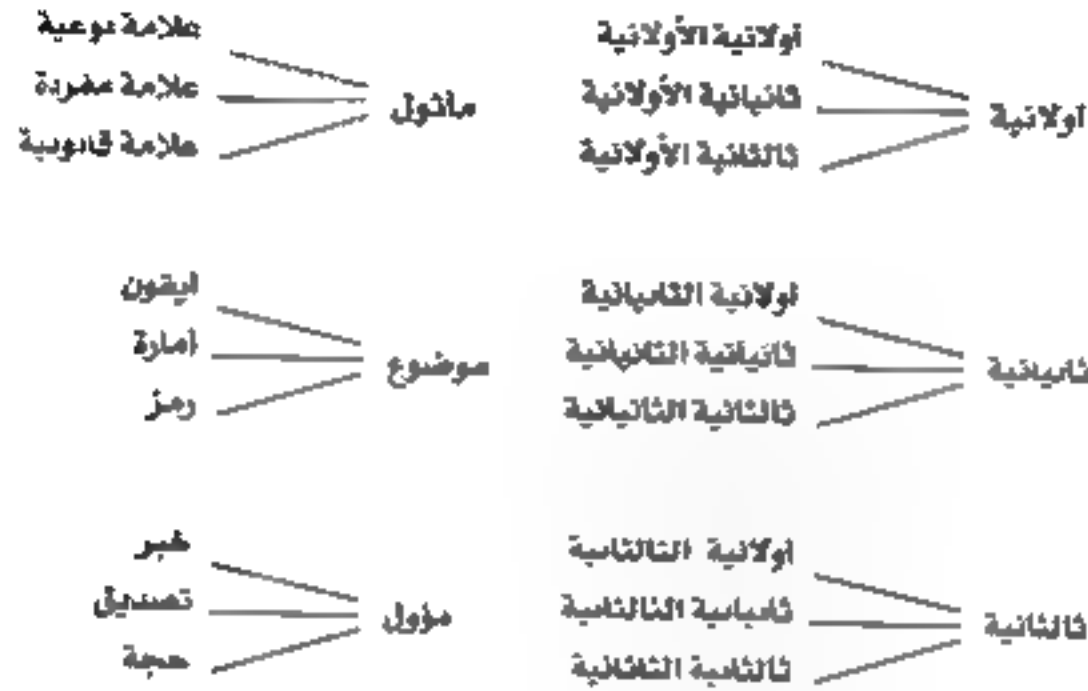
«إن الحجة هي علامة تشكل في علاقتها بمؤولها علامة قانون . وبعبارة أخرى ، فإن الخبر علامة تدرك باعتبارها تمثيلا لموضوعها من خلال طابعه المباشر ، والتعديق هو علامة تدرك كنمثيل للموضوع من خلال وجود فعلي ، والحجة علامة تدرك كنمثيل للموضوع من خلال طابعه كعلامة (. . .) . إن الحجة هي ذلك الفعل الذهني الذي يحاول من خلاله الشخص الذي يحكم أن يقتنع بصحة قضية ما (24) . واستنادا إلى العمل الإسنادي السابق ، فإن الأمر يحتاج إلى علاقة ثلاثية . 'أ' يعطي 'س' لـ 'ج' . فالبرهنة لا تعتمد فقط على ما يقدمه الماثول ، بل تجنح إلى تجريد يمتح عناصر تأويله من مجموع السياق المرافق للعلامة . «إن الحجة تمكن من معرفة دلالة ماثول من خلال تحديده داخل العلاقة التي ينسجها مع العلامات الأخرى المنضوية تحت نفس السر » (25) . ففي المثال السابق ، قد يحتاج ، لتوضيح كلمة 'حصان' ، إلى الاستعانة بالكلمات التي يعرفها هذا المستمع والتي قد تسمح له بمعرفة معنى كلمة حصان .

وفي ختام تحليلنا لهذه الثلاثيات الثلاث يمكن أن نقدم لوجه استبعاد من خلالها مجموع العلاقات القائمة بين العلامة بفرعاتها

(24) Caronini المرجع السابق ص 49

(25) نفسه ص 52

الثلاثة وبين المقولات بتفريعاتها الثلاثة أيضا - الثلاثيات في الشكل التالي :



وكما أشرنا إلى ذلك في بداية هذا الفصل ، فإن الأمر لا يتعلق بعلامات معرولة عن بعضها البعض ، بل إن هذه العلامات تدخل في تأليقات جديدة فيما بينها لكي تشكل نمطا جديدا من العلامات فبالإضافة إلى أن كل علامة يمكن أن تؤول من زوايا مختلفة باعتبارها رمزا وأمانة في نفس الآن ، أو علامة مفردة وحبرا في نفس الآن ، بل يمكن أيضا أن نستخرج من خلال هذه التأليقات علامات قائمة الذات انطلاقا من الربط بين علامتين أو أكثر ، وهذا ما يوضحه الجدول في الصفحة التالية الخاص بالأقسام العشرة للعلامة كما ينصورها بورس :

1-1-1	العلامة الموعية الخيرية	مقعة حمراء تحيل على الإحسان بالأحمر وكل نوعيه ينظر إليها كعلامة
1-1-2	العلامة المقردة الخيرية	علامة مقردة ومحددة سابقيا، تناظر مبرك بشكل مباشر - علامة ملوقيه تنشر إلى "اشغال"
1-2-2	علامة مقردة تصديقية خيرية	شيء علامة يثير انتباهك مباشرة إلى شيء لأن له علاقة تجاورية معه ، مثال ذلك صرخة صورية
2-2-2	علامة مقردة لمارية تصديقية	شيء علامة يثير انتباهك مباشرة إلى شيء آخر يحكم تأثير الأول على الثاني، مثال ذلك دوائر هواء
1-1-3	علاقة معيارية ايقونية خيرية	علامة نمطية تمثل لهاظها بنية موضوعها، مثال ذلك الرسم البياني في الإحصائيات
1-2-3	علامة معيارية لمارية خيرية	علامة نمطية مرتبطة بموضوعها تجاوريا، مثال ذلك اسم علم ، أو اسم إشارة
2-2-3	علامة معيارية تصديقية	علامة نمطية توفر (خيارا) حول موضوع ما : العضو المنظم لحركة المرور
1-3-3	علامة معيارية رمزية خيرية	علامة نمطية تحيل على فكرة عامة (مفهوم - قسم)
2-3-3	علامة معيارية رمزية تصديقية	علامة نمطية تحيل على فكرة أو قسم يصدق بكل فعل على قسم مثال : اثبات يعود إلى حالة فردية
3-3-3	علامة معيارية رمزية حجاجية	علامة نمطية تحيل على الموضوع بواسطة مجموعة من العلامات النمطية المنظمة مثال : نظرية علمية (26)

المفصل الرابع المؤول والسيرورة التأويلية

شددنا في المفصول الثلاثة السابقة على الطابع اللامنتهي لسلسلة الإحالات المتولدة عن عملية التمثيل التي تقوم بها العلامة . فلا يمكن قطعاً تصور إحالة تكتفي بإنتاج ما يعينا على تعيين شيء مفرد في العالم الخارجي بعيداً عن إحياءات السلوك الإنساني . فالعالم الذي نحيل عليه العلامة عالم يُستوعب داخل سيرورة تدليلية تحيل على أكوان تأويلية بالغة التنوع . فمجرد ما نتخلص العلامة من لحظة التأويل الأولى حتى تتطور في كل الاتجاهات فالعلامة ، في تصور بورس ، تضع للتداول ، كما رأينا ذلك في المفصل الثاني ، ثلاثة عناصر : أول يحيل على ثان عبر ثالث هو نفسه سيتحول إلى منطلق لتوليد سلسلة من الإحالات الأخرى . فلا يمكن لهذه السلسلة من الإحالات أن تنتهي ، نظرياً على الأقل ، عند نقطة بعيها . فكل إحالة تستدعي إحالة إضافية ، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية .

إن العلامة ، وفق هذا التصور ، لا تنتج دلالة أحادية مكنمية مداتها برماح إليها الذات ، بل تولد سيرورة تدليلية بالغة الغنى والتنوع . فكل الإحالات ممكنة انطلاقاً من فعل التمثيل الأول ، أي العمل الذي يضع الماثول ضمن حركة سميوزية تستند إلى المؤول بأعباره العنصر الحاسم في وجود الدلالة وتداولها .

ولقد أثارت فكرة الإحالات اللامتناهية الكثير من الجدل في أوساط الباحثين المهتمين بميلان التأويل وآلياته. فقد ذهب البعض إلى حد اعتبار بورس أول من دعا إلى تفكيكية متحررة من قيود الحننام (دريدا)، في حين اعتبر البعض الآخر أن اللامتناهي لا يعين التأويل المطلق، بل يشير فقط إلى فكرة وردت مرارا عند بورس مصادها أن ' معنى علامة ما هو ترجمتها في علامة أخرى وهكذا دواليك ' . فلم يكن بورس يتصور إمكانية تحول هذه الفكرة إلى عقيدة تجعل من كل التأويلات أمرا ممكنا، ذلك أنه هو نفسه كان يتحدث، وهو يبرهن على لانهائية الإحالات، عن إمكانية وضع حد لهذه السيرة من خلال الإشارة إلى فعل تداولي يتجه السياق وتقبل به الذات المؤولة (ما يسميه بالمزول النهائي).

وهناك من رفض هذا التصور حملة وتفصيلا واعتبره سيرة منافية لطبيعة الفعل السميائي. فلقد استهجن بنفنيست مثلا هذا الأمر، في نهاية الستينات من القرن الماضي، وعده نوعا من المضاربة الفكرية التي لا تؤدي إلى أية نتيجة. ولهذا لم ير في هذه الإحالات التي يتحدث عنها بورس سوى حركة تشير إلى تهرب دائم من إرساء لحظة يمكن فيها للمعنى أن يستقيم ويستقر على قيمة دلالية تظمن لها الذات. فقد أبدى استغرابا كبيرا، وهو يقدم بورس إلى الباحثين المرسمين، من وجود سوق سميائي فضفاض لا تحكمه حدود ولا صفاف ولا تحوم. ففي رأيه لا يمكن لهذا السوق الذي يرى في العلامة أساس الكون كله، في التصنيف والتعريف والاشتغال، أن يكون منطلقا صلبا لسيرة تدللية تنتهي إلى إنتاج دلالات، وهي ما يشكل العناية الهائية من وجود أي نسق. فمادام ' الأول ' يحيل على '

الثاني " عبر " ثالث " هو نفسه قابل لأن يتحول إلى " أول " يحيل على " ثان " عبر " ثالث " جديد، فإن إمكانية اكتفاء العلامة بذاتها أمر مستحيل والخلاصة في نظره أن هذا الصرح السميائي الذي ضيقه بورس لا يمكن أن يستوعب نفسه بنفسه . فلكي لا تندثر العلامة داخل هذا التوالد اللامتناهي، يجب الإقرار، في لحظة ما من لحظات الإحالة، بوجود اختلاف بين العلامة والمؤول⁽¹⁾ .

وقد يكون لهذا الاستعراب ما يبرره في كتابات بورس دانه (تصوره لسمبور لامتناهية)، إلا أن وجود كيان علامي يتطور بشكل أولي في اتجاه أفاق دائمة التجدد ضمن نسق " يوضح نفسه بنفسه " على حد تعبير إيكو، يعد، عكس ما تصور بنغيست، دليلا على أصالة هذا الصرح السميائي وغناه . فما يبدو وكأنه سلسلة من الإحالات التي لا يحكمها ضابط ولا رادع، هو ما يشكل الإضافة الحقيقية التي تضمنها تعريف العلامة عند بورس . فمقولة المؤول - الحجر الأساس في أي تعريف للتدليل - يشكل نقطة الارتكاز الأولى في تعريف العلامة وفي وجودها وفي أشكال تجلياتها . فما دام التوسط (الأشكال الرمزية على حد تعبير كاسيرير)، هو المبدأ المركزي في إدراك العلاقة بين الذات وما يوجد خارجها، فإن المؤول هو المصفاة التي يتم عبرها تسريب الصور المتنوعة التي تربى بها الموجودات " الواقعية منها والمتخيلة، أو القابلة للتخيل أو عبر القابلة للتخيل " كما كان يحلو لبورس أن يقول .

(1) Benveniste (Eugène): Problèmes de linguistique générale II, éd. Gallimard 1974, p. 45.

1- المقولات واللامتناهي والعلامة

ولابأس أن نذكر ببعض الأمس التي سبق أن عالجاها في المصول الثلاثة السابقة من هذا الكتاب . فالأمر يحتاج ، من أجل إدراك العمق التأويلي الذي تشتمل عليه نظرية بورس في السيميائيات ، إلى إدراك المفارقة التي قد يحيل عليه التصور البورسي للدلالة . فهو ، من جهة يتصور الدلالة باعتبارها إحالة لا متناهية ، ومن جهة ثانية يقيد هذه الدلالة بغايات تداولية تفلص من حجم السميوز وترسم لها حدودا .

إن هذا التصور الخاص للعلامة ولنمطها في إنتاج الدلالة هو مدخلنا الرئيس للحديث عن مفهوم غني للتأويل انطلاقا - بالتحديد - مما أثار استغراب بنفيسست واندهاشه . وهو نفسه الذي سيتيح لنا فرصة استحضار نمط آخر للتدليل وذلك من خلال إقامة رابط بين مفهوم المؤول كما صاغه بورس وبين التصور القائل بأن إنتاج الدلالة يرتكز على خلق صلة وصل دائمة بين مادة مصمونية منظمة للأكران القيمة العامة بشكل سابق عن أي تجل نصي أو غيره (مقولات الخير والشر والصدق والكذب) ، وبين أشكال التجلي التي تعد أفقا دائم التجدد ، أي كل السياقات الخاصة القابلة لاستيعاب هذه القيم المصمونية . ومن أجل توضيح ذلك سنعمل على تحديد مفهوم العلامة ضمن السيرة التي يطلق عليها بورس السميوز (sémiosis) ، أي السيرة المؤدية إلى إنتاج الدلالة وتداولها .

بدءا تجدر الإشارة إلى أن تكوين العلامة الثلاثي (ماثول موضوع - مؤول) هو ، هم كما تمت الإشارة إليه في الفصلين الأول

والثاني، استعادة للتقسيم الثلاثي الذي يحكم عملية إدراك الكون وضبط قوانينه. والأمر هنا يخص المقولات الفيتومينولوجية المشار إليه في الفصل الأول. وبناء على هذا، فإن استيعاب كنه العلامة وطرق اشتغالها وبمط الإحالات داخلها مشروط بفهم إواليات الإدراك الذي يستند، عد بورس، إلى النوعية والأحاسيس (أول)، وإلى الموجودات الفعلية (ثان)، وإلى رابط الضرورة والعكر والقانون (ثالث) ومن السهل جدا وضع هذا التراط ضمن منطق الإحالات الخاصة بالعلامة: فالأول يحيل على الثاني عبر أداة التوسط التي يمثلها الثالث. وبعبارة أخرى، فإن الأحاسيس والنوعيات هي معطيات عامة (أول) تُصب في الموجودات الفعلية (ثان) وذلك عبر قانون يضمن دوام الإحالة وتحديد وجودها استقبالا (ثالث).

إن هذا النمط الثلاثي في الإحالة هو أساس وجود العلامة. فالمائول (représentamen) يحيل على موضوع (objet) عبر مؤول (interprétant) وفق شروط الفعل المركب للإدراك. وهذا معناه النظر إلى الدلالة باعتبارها سيروية في الوجود وفي الاشتغال، وليست معطى جاهزا يوجد خارج الفعل الإنساني

ودون أن نقف طويلا عند نظرية المقولات وأسسها المعرفية⁽²⁾، يمكن القول، انطلاقا مما توفره هذه النظرية ذاتها، إن العلامة هي معطى خاص للتركيب يتم انطلاقا منه تنظيم الواقع وفق وجود أقسام من التمثيلات العلامية، هذا المعط الذي يغطي مناطق من المعيش

(2) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب

والمحسوس والمختيل - وإذا كان هذا التركيب، استنادا إلى ما قلناه سابقا، كيانا ثلاثيا هو الآخر، فما هو الشكل البنائي المؤسس للعلامة باعتبارها أداة مركزية في إنتاج الفكر والحروج من الذات للدخول في حوار مع "عالم الأشياء"؟.

إن أول تعريف يخص به بورس العلامة هو تعريف مستوحى، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، من الترابط الثلاثي بين عناصر الإدراك الأساسية "ف" الفكر (الذي هو من نظام الثانية) يستحوذ على الموجودات (التي هي من نظام الثانية) عبر الممكنات (التي هي من نظام الأولانية) ⁽³⁾. وانطلاقا من هذا التوزيع، فإن "العلامة أو الماثول" ⁽⁴⁾ هي شيء يعوص بالنسبة لشخص ما شيئا ما بأية صفة وبأية طريقة. إنه يخلق عنده علامة موازية أو علامة أكثر تطورا. إن العلامة التي يخلقها أطلق عليها مؤولا للعلامة الأولى، وهذه العلامة تحل محل شيء يعد موضوعها. وهذا "الحلول" لا يستوعب مجموع مكونات الموضوع، بل يتم عبر فكرة أطلقت عليها أحيانا "عماد" (fondement) الماثول" ⁽⁵⁾.

(3) فكرة لروبير مارتني توردتها جويل ريتودي في Langages n 58 ص 34 ، وهو عدد خاص بسميات بورس.

R Marty La théorie des interprétants , in Langages n 58.

(4) رغم أن بورس يستعمل عبارة "العلامة أو الماثول" فإن هناك فرقا واضحا بينهما. "العلامة هي الشيء المعطى كما هو، بينما يعين الماثول الشيء / علامة مطورا إليه داخل التحليل الثلاثي كمصدر داخل سيورة التأويل" انظر

Nicole Evcard- Desnedit - Le processus interprétatif, introduction à la sémiotique de C S Peirce , ed Mardaga Editeur p 39.

Peirce Ecrits sur le signe p 121. (5)

إن هذا التعريف يضعنا أمام هرم يتكون من ثلاثة عناصر تحكمها عتبة واحدة، وتتوزع في التمثيل والتدليل وفق نفس الغاية ووفق قوانينها، أي التمثيل لشيء يمكن استحضاره من خلال شكل أو أشكال رمزية. فـ "الماثول" هو الأداة التي نستعملها في التمثيل لشيء آخر يطلق عليه بورس "الموضوع"، وفق شروط خاصة في الإحالة يوردها "المؤول" باعتباره الشرط الضروري للحديث عن سيرورة تدليلية قادرة على الاكتفاء بنفسها والتخلص من مقتضيات الـ "أما" والـ "هنا" والـ "الآن". ويشكل المؤول داخل هذه النية الفكر الذي يحول التجربة الصافية المحصل عليها عبر إحالة ماثول على موضوع، إلى نموذج تجريدي تستعاد عبره كل التجارب المشابهة.

وكما هو واضح من التعريف الذي يعطيه بورس للعلامة، فإن «الماثول مرتبط بثلاثة عناصر عماد وموضوع ومؤول»⁽⁶⁾. ويعد إدراك هذا الترابط بين أداة التمثيل وبين ما يوحد حارجها، المفتاح الرئيس لفهم نمط إنتاج الدلالة وفهم أليات التوالد التأويلي الناتج من تصور سيرورة تدليلية يعتبرها بورس، نظريا على الأقل، غير قابلة للانكفاء على نفسها، وغير محصورة بحد بعينه.

وعوض أن يكون هذا الترابط مرادفا لحركة تمهينية ممتدة في أشياء تعد نقطة نهائية لفعل العلامة. "هذه الكلمة تدل على هذه الواقعة هنا والآن فحسب"، فإنها تحول، وتحوّل عبرها "الأشياء" إلى علامات نقوم، وفق نفس شروط الإحالة الأولى، بحلق

(6) Pierre Ecrits sur le signe 121 ص 121

سلسلة من الإحالات داخل الدائرة الخاصة التي تحتوي العنصر مصدر التدليل. وهكذا، فكل عنصر من عناصر العلامة قابل لأن يتحول إلى علامة، أي إلى عنصر استقطاب دلالي يشير حوله مسيرات متنوعة في الإحالة والتدليل، « فالعالم الذي تحيل عليه العلامات عالم يتشكل ويتحول داخل نسيج السميوز »⁽⁷⁾

2- المؤول وانتاج الدلالة

إلى هنا، نكون قد حاولنا رسم الخطاطة العامة التي تمثل عبرها العلامة أمامنا باعتبارها كيانا محتدا في نفسه أولا، مما دام كل عنصر قابلا لأن يتحول إلى نقطة ارتكاز تتجسد فيها الوقائع التدليلية، فإن النسق العلامى يتحول إلى آلة ضبط ذاتي منتجة لرقابة داخلية تتحكم في مجموع الدلالات الناتجة عن حركة دلالية ما. وهي كيان ممتد في ما هو خارجها ثابا، فالعلامة تموت لحظة تجسدها في واقعة بعينها، فهي « تولد وتكر وتموت في الأشياء (. .) إنها تترك أثرا تسمى عادة (habitude) عندما يتعلق الأمر بالإنسان، وقانونا عندما يتعلق الأمر بالمجتمع أو بعلوم الإنسان »⁽⁸⁾.

وبعبارة أخرى، فإن فعل العلامة مدرج ضمن « سيرورتين متقابلتين ومتكاملتين في نفس الآن. سيرورة أولي منشقة من القوانين الداخلية للغة ذاتها. ومن هذه القوانين نستقي اللغة معاييرها في الممارسة. وأخرى منشقة من الشروط التاريخية الملموسة الخاصة

(7) David Savat La inférence et son monde, in Langages n 58, p 71

انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب

(8) جيرارد دولودال « نسبية لقراء مورس »، ترجمة عبد العلي اليزمي، مجلة علامات، العدد 8، ص 113.

للممارسة الدالة، وهي التي تبلور - على المستوى اللغوي - مجموع الإرعامات والتناقضات والمعايير الخاصة بهذه الممارسة⁽⁹⁾.

وستحتاج، لتوضيح كل هذه القصايا، إلى العودة من جديد إلى تحديد مفهوم المؤول في أفق تحديد الغايات التدللية المرتبطة به أولاً، ثم تحديد موقعه من نظرية تأويلية ممكنة ثانياً، ثم تحديد موقعه كجسر رابط بين مادة مضمونية ما وأشكال تجسدها في نسخ خاصة ثالثاً. وسنحاول القيام بذلك من زاوية قراءة موجهة تحديداً إلى النظر إلى المؤول باعتباره يشكل منطلقاً لأي تحليل دلالي.

لقد أشرنا في الفقرة السابقة إلى أن عملية التمثيل العلامي التي تقود إلى خلق كيان رمزي يستعاض به عن " تجربة إنسانية ما "، تستدعي ماثولاً (أداة للتمثيل)، وبرنط هذا الماثول - لحظة قيامه بالإحالة على موضوع معين - ما يسميه بورس بالعماد. ومفهوم العمد هذا يشير إلى أن تمثيل واقعة ما هو تمثيل جرنّي، ذ «العلامة نحل محل شيء يعد موضوعاً لها. وهذا الحلول لا يستوعب مجموع مكونات الموضوع، بل يتم عبر فكرة أطلقت عليها أحياناً " عماد " (fondement) الماثول «(بورس).

ووفق هذه النظرة، فإن كل تمثيل ليس سوى انتقاء خاص يتم وفق جهة نظر معينة. إبه، بعبارة أخرى، « صفة للموضوع باعتباره متقّى بطريقة معينة في أفق خلق موضوع مباشر⁽¹⁰⁾ ».

إن مردودية هذا المفهوم لا تتحدد إلا لحظة التمثيل، أي لحظة

(9) Carotai (Enrico) . Action du signe p. 29

(10) Eco, Umberto: Lector in fabula, ed Grasset, 1985, p 36

انتقاء موضوع ما عبر إحالة خاصة، فالقول مثلاً : "إن الشجرة مثمرة" ، ليس سوى انتقاء لخصائص بعينها واستبعاد لأخرى ، فلا يمكن القول إن هذا التمثيل قد استوعب ، من خلال حركته تلك ، مجموع الخصائص المميزة للشجرة في كليتها (الطول ، الظلال ، الأعصاب الوارفة أو غير الوارفة ، طبيعة الفاكهة ، أو كل الإحالات الاستعارية التي يمكن أن تحيل عليها كلمة شجرة . . .) . ولعل هذا التحديد هو الذي يجعل من الموضوع ، أي ما يوجد خارج أداة التمثيل ، كياناً أشمل وأعم من العلامة ، بل إن العلامة ، في محاولاتها الدائمة لاستيعابه ، لا تقوم إلا بالكشف عن غناه وتطوره الدائم .

إن الإشارة إلى ' جهة ما ' بنم عبرها التمثيل ، سيقود بدرس إلى التمييز بين العمل الحاص للعلامة مجسداً في واقعة قد تزول وفق ما تخصصنا به التجربة المشتركة . وفي هذه الحالة تتوقف عملية إدراك الواقعة عند حدود ما هو معطى بشكل مباشر من خلال العلامة ذاتها ، وبين الفعل الضمني لهذه العلامة ، وهو ما يمكن أن ينتج عن هذا التحيين الخاص من افتراض لمعارف أخرى قد لا يستطيع الشخص الذي يقوم بالتأويل استيعابها ضمن مسير تأويلي واحد محدود في الزمان وفي المكان .

إن هذا التمييز سيقودنا إلى الفصل ، في ميدان المعارف الممثلة داخل العلامة ، بين الشيء الموصوف وبين الفعل الواصف وبعبارة أكثر دقة ، الفصل بين الخطاب الواصف والخطاب الموصوف ، أي الفصل بين ما يشكل مادة وضعت أصلاً للتأويل (وكل تمثيل هو

نصيغة من الصيغ التأويل)، وبين الفعل الذي يفصل بين المستويات والمراتب وزوايا النظر . في الحالة الأولى يدرك الموضوع باعتباره معرفة (بأنماطها المتعددة) تخص واقعة ما (معرفة تشير إلى حجم هذه الواقعة ومكانها وتاريخها . . .) وبين المؤول باعتباره المعمل الذي يكشف عن هذه المعرفة ويحدد طبيعتها والمستويات داخلها .

وبالتأكيد، فإن المؤول ليس تأويلا، إنه مرتبط بالتأويل ويعد مطلقا له، إلا أنه أكثر عموما ويقتضي فعلا يختلف عما يمكن أن يحيل عليه التأويل . فالمؤول يقتضي وضعاً لا يتطلب سياقاً خاصاً، ولا يتطلب شخصاً يقوم بالتأويل . في حين يمكن اعتبار التأويل محاولة للإمساك بخيوط دلالة ما والدفع بها إلى نقطة نهائية تعد خاتمة لمسير تأويلي . ومع ذلك، فإن المؤول وأنواعه هو المدخل الرئيس إلى تحديد فعل التأويل، وعلى هذا الأساس يمكن تناول المؤول باعتباره ما يشكل نقطة إرساء أولى للمعنى

واستنادا إلى هذا التمييز أيضا، سيعمد بورس إلى الفصل بين المباشر وغير المباشر في العلامة، أي بين موضوع معطى عبر فعل التحيين نفسه، وبين ما يمكن أن يدرك بشكل غير مباشر من خلال ما هو متحقق . ولأن الموضوع هو الذي يحدد العلامة (فهو أشمل وأعم منها)، فإن التفكير في موضوع ما، هو بالتأكيد تفكير في شيء مملك عنه معرفة سابقة . « فإذا قلتم إن هذا الموضوع موجود هنا في استقلال عن كوننا نفكر فيه، فإن كلامكم هذا لا معنى له » (11)

(11) Eliseo Veron La sémiotique et son monde in Langages n 58, p 67 عبارة

لورس وردت في أحد المخطوطات ويستشهد بها الكاتب لتوضيح تعريف بورس "للواقع"

والخلاصة أن الموضوع لا يحضر في أذهاننا إلا عبر تلك المعرفة، كما لا يمكن الحديث عنه إلا من خلال هذه المعرفة. فـ «الموضوع هو المعرفة المفترضة التي تسمح لنا بالإتيان بمعلومات إضافية تحصيه». فإذا كان هناك شيء ما يشير إلى معلومة دون أن يكون لهذه المعلومة أية علاقة - مباشرة أو غير مباشرة - بما يعرفه الشخص الذي يتلقاها، فإن الحامل لهذه المعلومة لا يسمى، في هذا الكتاب، علامة⁽¹²⁾.

ولعل هذا ما دفع بورس إلى التمييز بين نوعين من الموضوعات (الأمر يتعلق في واقع الأمر بالتمييز بين نوعين من المعرفة): يطلق على الأول الموضوع المباشر، وهو كذلك من حيث إن فعل الإدراك الذي يستدعيه لا يتطلب سوى عناصر التجربة المشتركة. والثاني ديناميكي، وهو كذلك من حيث إنه يستدعي فعلاً موازياً للأول لأنه حصيلة ما يسميه بورس بـ «التجربة الضمنية» (expérience col-latérale)، أي تلك التجربة الناتجة عن سيرورة سمبائية سابقة عن الفعل الذي يحقق الموضوع المباشر. وما يقوم بربط العلامة إلى هذا الموضوع أو ذلك هو السياق الخاص الذي تولد وتنمو العلامة ضمنه.

ولكي لا نتيه في المزيد من التحديدات التي تخص هذه المعرفة وروانا النظر الكاشفة عنها، يمكن القول إن السر وراء هذا التوزيع المبهجي الدقيق يكمن في التصريح - وبورس لا يكف عن ذلك بأن الموضوع يتجاوز العلامة، وأن التمثيل، بحكم طبيعته الخاصة

(12) Peirce. Ecrits sur le signe p 123

للممارسة الإنسانية، قاصر عن استيعاب مجموع ما يوفره الموضوع ضمن دائرة تعشيلية واحدة، نتيجة لما يسميه بورس بـ 'قصور العلامة' (l'imperfection du signe). فيما أننا مجبرون دائماً، من أجل تحديد موضوع علامة، على استحضار علامة أخرى، فإن الموضوع لا يشكل حداً نهائياً للتأويلية إيلاغية ما.

إن ما يمكن أن يحدد هوية العلامة - أي ربط ماثول بموضوع ضمن سياق خاص - هو المؤول باعتبار وظيفته في الكشف عن المراتب والمستويات، فـ «نحن لا نستطيع أبداً معرفة الشيء في ذاته، إنما نعرف فقط العلامة التي هي دليل عليه، والعلامة على هذا الأساس كيان فضفاض في علاقتها بمؤولها، وهذا المؤول هو ما يحددها» (13). ذلك أن «موضوع العلامة لا يمكن أن يكون إلا علامة أخرى. والسبب في ذلك أن العلامة لا يمكن أن تكون موضوعاً لنفسها، إنها علامة لموضوعها من خلال بعض مظهره» (14).

وفي جميع الحالات، يمكن القول، استناداً إلى التحديدات السابقة، إننا أمام معرفة تتشعب في جميع الاتجاهات، ووجود العلامة هو وجود العنصر المنظم والمعدل لهذه المعرفة. إن العلامة تقوم بمهمتها تلك في مرحلة أولى عبر إعداد موضوعات قابلة لاستيعاب وتنظيم هذه المعرفة (وهذا دليل آخر على أن الموضوع يتجاوز العلامة). وتقوم بذلك في مرحلة ثانية من خلال إدراج فعل للتأويل

Thérèse Calvet de MAGALHAES Signe ou symbole, ed. Louvain (13)
Lancette et Madrid, 1981, p. 162

Peirce: Ecrits sur le signe. (14)

(مؤول) يقوم بالكشف عن هذه المعرفة ويحدد مستوياتها و «القانون» وحده هو الضامن لواقعية الواقع . فالبعد المستقبلي ليس شئنا آخر سوى تعريف للثالثانية، ذلك " النمط الذي يكمن في كون الوقائع المستقبلية للثانياتية تتخذ طابعا عاما ومحددا، وهو ما أطلق عليه الثالثانية " (Peirce collected papers 1 . 25) (15) . وهذا معناه أن الدلالة، باعتبارها سيرة في الوجود وفي الاشتغال وفي التلقي، لا يمكن أن تدرك إلا عبر مستوياتها، أي أنماطها في التدليل وفي معرفة العالم وهو ما يحدد نمط إدراك الذات لعالم الأشياء .

إن " المعارف " المتولدة عن الإحالة " الصافية " (ماثول بحيل على موضوع خارج أي قانون أو فكر)، هي معارف تتميز بالهشاشة والغموض والتسبب، فهي بلا " ذاكرة " وغير قادرة على التحول إلى معرفة عامة . إنها مرتبطة بواقعة بعينها، وتستخفي باختفاء الشروط التي أنتجتها . أما في الحالة الثانية، فإن الإحالة تتم وفق قانون أو فكر يجعل من الواقعة ذاكرة قابلة للتعميم . مثال ذلك أنك إذا قلت أو نظفت أمام شخص ما بكلمة " شجرة " ولم يكن هذا الشخص قد سمع بهذه الكلمة أو رأى الشجرة، فإنه لن يدرك من هذه الواقعة سوى مجموعة من الأصوات التي قد تثير لديه بعض الانفعالات أو الأحاسيس ولكنها لن تقوده قطعا إلى إدراك أي شيء . لاحظتها سيكون بإمكانك أن تأخذ بيديه لثريه شجرة مرسومة على الورق أو في الواقع . وفي هذه الحالة فإنك لا تقوم إلا بربط ماثول (صورة أو شجرة فعلية) بموضوع (ما تتضمنه الصورة أو الواقع) لأن هذا الربط

هو ربط "محلي" و"مؤقت". فمادام هذا الرجل لا "يمتلك" الشجرة فكربا"، فإنه لن ينظر إلى الواقعة إلا باعتبارها تجربة صافية حالية من الفكر. ولكن إذا "بررت" هذه العلاقة من خلال "تجريد" الواقعة وتحويلها إلى مضمون معرفي يتجاوز الواقعة العينية (السحة شعير بورس)، فإنك تكون قد أمددت هذا الشخص بـ "فكر" (أو قانون في لغة بورس) يسمح له باستحضار كل ما يشبه هذه الواقعة، أي أن الشجرة التي رآها منذ قليل تتحول عنه إلى نموذج عام، يستطيع من خلاله استحضار كل "الأشجار الممكنة" كيفما كانت الصور التي تحضر بها إلى الواقع. وهذا ما يقوم به المؤول، وتلك وظيفته داخل العلامة. وعلى هذا الأساس فإن "التدليل" لا يمكن أن يستقيم من خلال حركة إحالة ثابتة التكوين، إن التدليل فعل ثلاثي يستدعي وجود ثلاثة عناصر مرتبطة فيما بينها: ماثول وموضوع ومؤول. وهذا هو الشرط الأولي للحديث عن تجربة فكرية (تجربة إدراكية).

إن نمط البناء هذا هو تأكيد للطابع المركب للفعل الإدراكي الذي يقود الذات المدركة إلى التخلص من العالم الخارجي عبر امتصاصه كقوانين، أي تمثله كسلسلة من النماذج المؤدية إلى استحضار التجربة عبر وجهها المجرد. وبعبارة أخرى، فإن المؤول يقوم - من خلال موقعه كأداة للتوسط الإلزامي - بحلق حالة إدراك تسمح للذات بالانفصال من رتبة كل الإرغامات التي يفرضها الزمان والمكان عبر الامتلاك الرمزي للكون (أو الامتلاك الفكري للكون كما كان يقول كاسيرير). فلقد استطاع الإنسان، من خلال الرمز وداخله، أن ينظم تجربته في انفصال عن العالم. وهنا ما جنبه التيه

في اللحظة، وحماه من الانغماس في مباشرة الـ "هنا" والـ "الآن" داخل عالم بلا أفق ولا ماضي ولا مستقبل. فكما أن الأداة (outil) هي انفصال عن الموضوع، فإن الرمز هو انفصال عن الواقع⁽¹⁶⁾. وليست الدلالة وطرق إنتاجها وسبل تداولها سوى حصيلة حركة ترميزية قادت الإنسان إلى التخلص من عبء الأشياء والتجارب والزمان والمضاء.

3- المؤول والتأويل

إن الطبيعة التركيبية الخاصة بالفعل الإدراكي، تمتد لتشمل في مرحلة ثانية مستويات إنتاج الدلالة وتداولها. وإنتاج الدلالة، باعتباره نشاطاً رمزياً في المقام الأول، لا ينفصل عن السبل الخاصة في تنظيم "أشياء الكون ووقائمه" وتوزيعها على خانات وأقسام. فإذا كانت الأشياء لا ندرك إلا باعتبار موقعها ضمن "قسم خاص" نطلق عليه أحياناً "النسق" وأحياناً أخرى "النموذج"، فإن الدلالة المرتبطة بهذه الأشياء (إنها في واقع الأمر السبل الوحيد لإدراكها) لا نستقيم إلا من خلال تحديد موقع هذا الشيء أو ذاك ضمن هذا النسق أو ذاك. وكما أشرنا إلى ذلك سابقاً، فإن العلامة هي الوسيلة الأساس (وربما الوحيدة) في إعداد الموضوعات وتنظيمها والقذف بها إلى ساحة التداول.

وللتداول دور هام، فهو يكشف عن المظاهر المتنوعة للشيء ولأنماط وجوده وتجلياته. ولهذا السبب، إذا كان تغيير موقع الشيء

Molino (Jean): *Interpréter, ou l'interprétation des textes*, ed minuit, 1989, (16)

من نسق إلى آخر يؤدي حسمًا إلى تعبير في دلالتة، فهذا معناه أن الدلالة ليست معطى جاهزًا بل هي سبرورة، ولا تحضر في الدهر باعتبارها كلاً بل باعتبارها مستويات.

من هنا، إذا كانت الواقعة (كيفما كانت طبيعتها) تحتفظ في جميع السياقات بنواة معنوية قارة، فإنها معرضة دائماً لاستحالات متنوعة تغني هذه النواة وتتجاوزها في الآن نفسه: إن 'مدخل الكلمة' و 'معنى الواقعة الاجتماعية' و 'معنى الشيء' كلها عناصر تشكل أوية قارة تنسج منها وعبرها مجمل الدلالات المرافقة لعملية تغيير السياقات. إن هذه المداخل تشكل ما يشبه الجذر المشترك لمجموع الدلالات التي يمكن أن نمنح لواقعة ما. بل يمكننا القول إن التواصل اليبشساني مرهون بوجود هذه الأنوية التي تعد تعميماً لتجربة إنسانية قارة. فقد يتغير معنى الشجرة من سياق إلى آخر، بل قد تحيل الشجرة على مصامين بالغة التباين، إلا أن النواة المعنوية الصغرى تظل ثابتة وهي التي تسمح بالعودة من جديد إلى الأصل لتوليد مزيد من الدلالات، والمقصود بالنواة هو المعنى التفريري المباشر.

ويسدو أنه لا يمكن فهم مجمل النصيبات⁽¹⁷⁾ التي يقدمها

(17) يشير بورس في معرفته من المؤول الديناميكي مثلاً إلى وجود مؤول انحصالي وآخر طاقوي وثالث منطقي Peuce Écrits sur le signe p130 واستناداً إلى سلسلة الشروح التي يقدمها، يمكن القول إن بورس في هذه اللحظة كان يطر إلى المؤول الديناميكي من زاوية التلقي، أي من زاوية وجود وصعبه إبلاعه مستدعي مآثا طقي كلاماً ومبلياً تصدر عنه ردود أفعال ما. ولعل هذا التصور هو الذي دفع كراتيني Carotini إلى محاولة تطوير نظرية في العنء الإبلاعه انطلاقاً من هذا التقسيم الذي يقدمه بورس انظر،

Enrico Carotini. L'action du signe, éd Louvain-La-Neuve, Bruxelles

1984، الجزء الثاني

بورس لفعل التأويل إلا من هذه الزاوية. ورغم الحضور المكثف للطابع المنطقي المرافق لهذه التصنيفات، فإن ما يجب الانتباه إليه، بل والتركيز عليه، هو وجود سيروية تأويلية تتحرك ضمن مسار يحدد لها متطبيقاتها، كما يحدد لها إرغاماتها وقوانينها. ومن ناحية القول، إن كل الحقول تنظم في سيرويات دلالية خاصة ووفق أنماط محددة في التجلي. وهكذا يمكن الحديث عن تقسيم عام يخترق السيروية التأويلية ويحددها في أشكال ثلاثة، وكل شكل من هذه الأشكال محكوم بوظيفة معينة داخل عملية إنتاج الدلالة.

وعلى هذا الأساس، فإن ذلك المعنى «المعطى بشكل صريح داخل العلامة، المتفصل عن أي سياق وكذا عن شروط التعبير عنه»⁽¹⁸⁾ هو زاوية نظر تلتقط ما تفرقه العلامة في بعدها المباشر، أي كما تبدو للمتلقي وكما يدركها دونما اعتماد على شيء آخر غير عناصرها الذاتية. إن النقاط هذه المعرفة، بهذه الروح، هو ما يسميه بورس بالمزول المباشر، أي «ما يتم الكشف عنه من خلال إدراك العلامة ذاتها، ما نسميه عادة بمعنى العلامة» (..). إنه يتحدد باعتباره ممثلاً ومعبراً عنه داخل العلامة»⁽¹⁹⁾.

إننا أمام حالة أولية للإدراك تتمثل في إنتاج دلالة لا تتجاوز حدود تعيين تجربة ما كما تقدمها العلامة من خلال مظهرها المباشر. إن حدود هذه الدلالة هي وصف هذه التجربة بالاعتماد فقط على العناصر الأولية التي تشمل عليها العلامة دونما اعتماد على شيء آخر. «فما تحيل عليه العلامة في بدايتها هو الإحساس بأن هذه

(18) Peirce, Ecrits sur le signe p 128

(19) ج 1 ص 189

العلامة تستع وقعا معينا . فهناك دائما إحساس تؤوله باعتباره دليلا على أننا قد فهمنا ما تدل عليه هذه العلامة » (20) . إن الأمر يتعلق موقع فقط ، أو بإحساس ما يشير إلى أن الذي يتلقى العلامة قد فهم ما تود العلامة قوله . فما هو هذا المصمون الذي ينظر إليه كإحساس فقط ؟ وما ذا نعني بالإحساس ثانيا ؟ .

« إن المؤول المباشر لا يقترح ، في واقع الأمر ، أية معرفة ، إلا أنه يقوم بإدراج الماثول ضمن حركة تأويلية » (21) ، إنها طريقة أخرى للتقول بأن هذا المؤول يشكل لحظة بدئية داخل سيرورة لا نرى منها سوى بدايتها ، أما نهايتها فموكولة إلى الشخص الذي يقوم بالتأويل . وبعبارة أخرى ، فإن ما يعينه من خلال هذا التمثيل هو مستوى دلالي أول مرتبط بحركة تأويلية يتحدد مصمونها من خلال مجمل المسيرات التأويلية التي يعلن عن ولادتها .

وبما أن التأويل هو دائما رخرة للعلاقات ، وتعبير للمواقع ، وإعادة لترتيب عناصر العلامات ، فإن ما يضم سلامة التأويل ودوامه واستمراره في إنتاج الدلالات المتنوعة هو وجود هذا الحد الأدنى المعوي المرتبط بتجربة حياتية لا تتجاوز حدود الاستجابة للبعد الصفي فيها . من هنا كان النظر إلى المؤول المباشر باعتباره قراءة أولية في معطيات ظاهرة في أفق فتح آفاق متنوعة أمام مستوى آخر من مستويات التدليل . ولأن المؤول هو ' علامة موارية أو أكثر تطورا ' من الأولى ، فإنه في ضمائه للإحالة من ماثول إلى موضوع ، يؤكد هشاشتها ، فتصور البحث من جديد عن إحالة أخرى أمر وارد

p 130 Peirce Ecrits sur le signe (20)

Carontini (Enrico) - Action du signe p 30 (21)

في كل لحظة ومع كل سياق (مع أي فعل تأويلي). ذلك أن الإحالة
نحصر لتراتبية ولا بشكل المؤول المباشر داخلها سوى إمكان صمن
إمكانات أخرى.

وبما أن كل واقعة، سواء تعلق الأمر بـ "الكلمة" أو بـ "الشيء"
أو بـ "طقس من الطقوس الاجتماعية"، تستدعي دائما، لكي تدرك،
السيرورة التاريخية التي نشأت في أحضانها، وتحولت عبرها إلى
ذاكرة للعقل الإنساني، فإن الجنوح إلى تجاوز ما هو معطى بشكل
مباشر داخل العلامة والبحث عن معان ثانية أمر طبيعي، ويستجيب
للطبع المتنوع للحاجات التي تنتجها الممارسة الإنسانية.

وعلى هذا الأساس، فإننا نعثر في تصور بورس على نوع ثان
من المؤولات قد يستجيب لهذه الحاجات، يطلق عليه بورس
المؤول الديناميكي وهذا المؤول مرتبط في الوجود بالمؤول
الأول، إلا أنه يختلف عنه من حيث الطبيعة (فهو متجدد باستمرار)
ومن حيث الاشتغال (فهو قراءة في السياق الذي يوجد خارج
العلامة، أي مجمل المضامين الثقافية التي تشير إليها العلامة).
وبعبارة أخرى، إنه العصر الذي يدل على أن معنى العلامة ليس
'استجابة لحاجة أولية ومباشرة'، بل هو نقش هي ذاكرة عبر مرثية
من خلال العقل التمثيلي الأول وهكذا، فإن بورس يرى فيه
«الأثر الذي تنتجه العلامة فعليا في الذهن» أو «هو كل تأويل يعطيه
الذهن فعليا للعلامة» (22).

وإذا تغاضبنا - في هذا التعريف - عن تحديد رد فعل المتلقي

للعلامة ، فإن المؤول الديناميكي يحيلنا على حركة التأويل المتولدة عن قراءة متجاوزة للمعطى المباشر للعلامة . إنه تحديد لسلسلة من المسيرات التأويلية التي تعد أصل السميوز وطبيعتها الفعلية والسميوز ، كما سبقنا الإشارة إلى ذلك ، هي حركة تأويلية غير محددة بأي أفق وغير محكومة بأية غاية . إنها سلسلة الاحالات المتولدة عن حركة تمثيل أولى ومتشعبة في كل الآفاق .

وعلى هذا الأساس ، فإن ما يطلق العنان لهذه الحركة وما يمدّها بعناصر التأويل هو هذا المؤول الذي يغرف عناصر تأويله من مصادر متعددة : الثقافي والإيديولوجي والخرافي والأسطوري والديني ، وكل ما يمكن أن يسهم في إغناء التأويل وتنويعه . ومن خلال هذا ، فإنه يدرج السميوز - وتلك وظيفته - ضمن دائرة اللامتناهي ، أي ضمن دائرة تأويلية يفترض بورس أنها غير محكومة بهاية أو غاية بعينها .

ولعل هذا ما دفع الكثير من القائلين بحرية التأويل ولامحدوديته إلى الاعتقاد أن بورس يمدّهم بأعلى المقترحات وأكثرها أهمية فالقول بلانهاية الإحالة هو القول بأن التأويل لا يمكن أن يكون محكوما بأية غاية . مرغكم القول بأن المعنى محكوم بالسياق ، فإن ما يجعل من التأويل حركة لا متناهية هو أساس هذا السياق ، فلا أحد يستطيع أن يوقف السياق في عدد معين . «وهناك فقرات في كتابات بورس تؤكد إمكان الحديث عن متاهة تأويلية لامتناهية » لا يمكن لمعنى التمثيل أن يكون سوى التمثيل ذاته . وبالمثل ، فإن التمثيل لا يمثل سوى نفسه باعتباره يُدرك خارج أي سياق . ولا يجرّد

هذا السباق من معناه وإنما يتم استبداله بمعنى أكثر شفافية . لذلك ،
فالأمر يتعلق باندحار لا متناهي للعلامة » (23) * (C P 1. 339)

فالعلامة لها الحق ، بمجرد أن تتخلص من لحظة التمثيل
الأولي ، أن " تسلم أمرها لمتناهاتها الأصلية " على حد تعبير دريدا
« بمجرد ما يتجسد الماثول - في صيغته المركبة كما هو الشأن مع
النص - فإنه يكتسب استقلالية سيموزيسية ، حينها قد تصبح قصيدة
المتلفظ غير ذات أهمية ، قياسا لموضوع النص الذي يقوم بتأويله
وفق القوانين السيمبورية الثقافية القائمة » (24) فالغاية من كل تأويل
هي الإحالات ولا شيء سوى الإحالات ، فبحسب لا يبحث عن
مدلول نهائي أو دلالة نهائية ، بل غايته هي إنتاج أكبر قدر من الدلالة ،
والدلالة هي الإحالات ذاتها . وبورس نفسه يقر بذلك من خلال
التعريف الذي يعطيه للعلامة ، فهو يؤكد أن الإحالات التي تولدها
السيموز إحالات لا يمكن أن تتوقف عند حد معين ، فالدلالة ، عندما
تتمت من عقاليها لا أحد يستطيع أن يحدد لها وجهتها فالسيمور في
جوهرها سيموز لا متناهية .

ومع ذلك ، فإنها « تعد في الممارسة سيموزية محدودة ونهائية
إنها تقع تحت طائلة العادة التي مملكتها في إسناد هذه الدلالة إلى تلك
العلامة داخل سياق مألوف لدينا » (25) إنها كذلك لأن أي تدليل

(23) أمبيرتو إيكو : التأويل بين السيميائيات والنمكيكية ، ترجمة ، سعيد سكراد ،
المركز الثقافي العربي ، بيروت 2000 ، ص 119

(24) نفسه ص 132

(25) Nicole Everant- Desmochi. Le processus interprétatif, introduction à la
sémiotique de C S Peirce, éd Mardaga Éditeur, p 42.

إنما يقوم انطلاقاً من سياق خاص يحدد للدلالات حجمها ومصادرها واعتداداتها. وفي كل الأحوال، فإن السياق ليس سوى محاولة لعزل واقعة ما، وإدراجها ضمن منطق خاص للتدليل. وهذا معناه تحليل الواقعة من كل ما لا يستقيم داخل هذا السياق. والخلاصة إذا كانت سلسلة التأويلات غير محدودة كما بين ذلك بورس، فإن الكون الخطابي يتدخل من أجل تحديد حجم الموسوعة⁽²⁶⁾.

إن الانتقال من مؤول إلى آخر لا يقوم على إلغاء ما سبق من المعارف وهذا هو جوهر سمبائيات بورس. إن النقطة النهائية التي نصل إليها تزيدنا معرفة بالنقطة التي انطلقنا منها. ولا يمكن للتأويل أن يكون إلغاء للبدء. فكلما توغل التأويل في أدغال العلامات إلا وأنتج مزيداً من المعرفة. فنحن مؤول وفق غايات خارج سمبائية. فالعلامة تحتوي أو تشير إلى مجمل مكوناتها الأكثر إيغالاً في القدم إلا أن معرفة هذه المكونات هي مجرد احتمال سيموري لا يمكن أن يتحقق إلا ضمن سياق محدد أو من زاوية معينة. فالسميوز لامتاهية في المطلق، إلا أن عباياتنا المعرفية تقوم بتأطير وتنظيم وتكثيف هذه السلسلة غير المحددة من الإمكانيات. فمع السيرة السميوزية ينصب اهتمامنا على معرفة ما هو أساس داخل كون خطابي محدد⁽²⁷⁾.

فمرغم كل الإشارات التي يقدمها بورس في اتجاه تأويل لا

Eco, Umberto: *Lector in fabula*, ed Grassct, 1985, p 77 (26)

(27) أمبيرتو إيكو: التأويل بين السمبائيات والتفكيكة، م س ص 121

محدود، وإن الاختلاف بين ما تقدمه التفكيكية مثلاً، وبين السميوت
اللامتناهية يظل كبيراً. فالغايات الخارجية التي لا يكف بورس عن
الإشارة إليها، وكذا التصنيفات المنطقية المرافقة لكل حكم
دلالي (سعود إلى هذا التصنيف في الصفحات الآتية) تشهد على
وجود كايح دلالي يوقف التدليل عند حد بعينه.

وهذا ما يفهم من التعريف الذي يقدمه بورس للمؤول النهائي
الذي يعتبره محطة نهائية داخل سيرورة التأويل، ومهمته هي تحجيم
السميوت والتقليص من حجمها. وعلى هذا الأساس، فإن القوة "المدمرة"
التي يطلق عنانها المؤول الديناميكي (من حيث إنه مرتبط
بمعرفة واسعة)، لا يمكن أن تتوقف من تلقاء نفسها، ولا يوجد
داخل هذا المؤول ما يورحي بإمكانية التوقف عند دلالة بعينها. إن
إيقاف هذه الحركة لا يتم إلا من خلال الاستعانة بمنطق آخر
لتدليل، أو إن شئنا القول، علينا إرساء دعائم سياق خاص يستدعي
الانشقاق والحذف والتحجيم. وتلك هي مهمة المؤول النهائي كما
يرى ذلك بورس. ترى ما كنه هذا المؤول؟

إن المؤول النهائي هو الموقع الذي تولده العلامة في الدهس بعد
تطور كاف للمعكر⁽²⁸⁾. فما كان يبدو لا محدوداً يتحول من خلال
المؤول النهائي إلى حركة محكومة بقوانين محددة تجعل كل إحالة
مدرجة ضمن منطق خاص للإحالة. فداخل سيرورة تأويلية يصبح
العمل التأويلي إلى تثبيت هذه السيرورة داخل سياق ثقافي يمكن
النظر إليه باعتباره أفقا نهائياً داخل مسار تأويلي ما يقود من تحديد

(28) Peirce Écrits sur le signe p 189

معطيات دلالية أولية (مؤول مباشر)، إلى إثارة سلسلة من الدلالات السالعة الغنى والتنوع (مؤول ديناميكي)، ليصل في نهاية الأمر إلى تحديد نقطة إرساء دلالية (مؤول نهائي).

ويعمد هذا الأفق شكلا نهائيا مستتقر عليه هذه السيرورة. إن الأمر يتعلق بما يسميه بورس بالعادة، «فالعادة تعجمد مؤفنا الإحالة اللامتناهية من علامة إلى علامة أخرى لكي يتسنى للمتكلمين الاتحاق على واقع سياق إبلاغي معين، إن العادة تثل السيرورة السميائية، فهي عالم "الأفكار الجاهزة" . ولكن العادة هي وليدة علامات سابقة، ولهذا فإن العلامات هي التي تزدي إلى تدعيم أو تغيير العادات» (29).

ولعل هذا ما لا يجعل من "النهائية" مصمونا رمنيا يتحدد داخله المؤول النهائي باعتباره مصدرا لإنتاج دلالات لا سلطة للزمان عليها. إن "النهائية" هنا تتعلق ببداية ونهاية مسير تدليلي ما، فما يبدو كنهاية مطلقة لمسير دلالي ما، سينحول إلى نقطة بدئية داخل مسير دلالي آخر إبه الرغبة الدفوية واللاشعورية التي تستشعرها انذات المؤولة في الوصول إلى دلالة بعينها انطلاقا من سيرورة تدليلية بعينها أو هو محاولة الذات لخلق "محميات دلالية" تريحتها من عبء المتسبب واللامحدود واللاقار من خلال الرسو على موقف دلالي بعينه.

وربما سيكون من السهل جدا القول بأن الغاية من وجود مؤول

(29) Nicole Everart- Desmedt - Le processus interprétatif, introduction à la sémiotique de C S Peirce, éd Mardaga Editeur, p 42 - 43.

من هذا النوع هي تحديد معنى كخلاصة لمجهود تدليلي، أي استقرار ماثول على موضوع. إلا أن الأمر أعقد بكثير من ذلك. فهذه السيرة هي سيرة افتراضية أملت لها عايات منهجية فحسب فالتدليل ومراحله وخطاته ليس شيئاً شفافاً يمكن المسك به بسهولة إنه مركب ومتنوع ومتعدد التجليات، وليس من السهل الفصل داخله بين نقطة بدئية وأخرى نهائية وثالثة تتوسطهما. فهو إلى جانب استناده إلى العناصر الأساسية التي توفرها العلامة كمادة للناوئل، يمتدح وحوود ذات خاصة تقوم بإنجازه، وهذا يعني امتصاص مخزون ثقافي آخر تأتي به هذه الذات في أفق تحقيق تأويلها الخاص.

ولقد حاول جيرار دولودال⁽³⁰⁾، انطلاقاً من نصوص بورس نفسها، أن يصف مجمل الدلالات الناتجة عن توقف السيرة التي يكشف عنها المؤول الديناميكي، انطلاقاً من قواعد منطقية تلخص عملية برهانية خاصة. إن بورس يدرج فعل المؤول النهائي في ثلاث خطوات تشير كل منها إلى حكم منطقي خاص:

١ - قد يكون هذا المؤول "عادة عامة" مرتبطة بالسلوك الاجتماعي، أي مرتبطة بكل ما يخص الأحكام الاجتماعية القيمة (السلوك الاجتماعي في الأفراح والحفلات والأحران). وهذا أمر في غاية البساطة، فالممارسة الإنسانية تتج أشكالا سلوكية عامة وفارة تحكم إليها وتقيس عليها نسجها المتحققة. وهذه الأشكال هي ذاتها نتاج سيرة سمائية سابقة اقتضت الحاجة الحياتية

Deledalle, Gerard: Théorie et pratique du signe (30)

(والتدلالية) إدراجها ضمن القوالب التي تشكل غطاء لكل ممارسة فردية خاصة . وفي هذه الحالة ينظر بورس إلى هذا المؤول باعتباره " افتراضا " (abduction) .

و " الافتراض " - في الجهاز المفهومي الذي يقترحه بورس - لا يتيح معرفة مع كل مستلزماتها الدلالية ، إنه منهجية للخروج بتكهن عام دون وجود صمانة موضوعية على أنه سيصدق على حالة خاصة أو حالة اعتيادية . إن ما يبرر هذا التكهن هو أنه يشكل الأمل الوحيد في تنظيم سلوكنا المستقبلي تنظيما عقلانياً (31) إن مهمته هي أن يقوم فقط بقياس حالة غير معروفة على ما نعرفه الذات المؤولة بشكل سابق . فـ " السرورة الافتراضية تقتضي التعامل مع التجربة التي أواجهها انطلاقاً من معرفة سابقة ، ويتعلق الأمر بالتطبيق الميكانيكي لحالة خاصة على مقولة سابقة " (32) .

إنها قواعد برهانية " مسترة " نحكم إليها كل يوم ، ونستند إليها من أجل تفسير وقراءة محصل ما يعود إلى التحمرة العادية وبعبارة أخرى ، فإن الأمر يتعلق بطريقة خاصة في تنظيم مجمل المعارف التي نعود إلى حفل سلوكي معين . فالتعرف على التجربة الجديدة يقتضي إلماماً بعناصر النسق الذي تنتج داخله هذه التحمرة . و يجب أن تكون هذه التجربة الجديدة قادرة على إنتاج مقولات جديدة ستعمل استقبالا على إغناء المقولات السابقة عليها (33)

(31) Peirce Ecrits sur le signe. p 188

(32) Carrozzini (Enrico) . Action du signe p. 33

(33) نفسه ص 33

2 - وقد يحدد هذا المؤول نشاطا معرفيا من طبيعة أخرى والأمر يخص ما يسميه بورس بـ "العادة المخصوصة" ، وهي عادة لا تهم سوى قطاع معرفي بعينه يتميز بطقته المعرفية وبإمكانية خصومه للمراقبة العلمية . وهكذا يرى بورس أن المؤول النهائي في هذه الحالة يعين طريقة في الكشف عن حكم عام من خلال حالة خاصة . وتلك عادة الخبير الفني الذي يقوم برد لوحة مجهولة إلى فنان بعينه ، ومدرسة فنية بعينها أيضا . ؛ وهي أيضا عادة عالم الحفريات الذي يقوم بتحديد تاريخ حجر ما استادا إلى المعرفة التي يملكها عن تعدد العصور الجيولوجية مثلا . ويترج هذا المؤول ضمن الأحكام القياسية (induction) والقياس في لغة بورس هو «طريقة خاصة في بلورة رموز قصوى (dicisignes) خاصة بقضية محددة ولا يستند المؤول ، عبر طريقة الحكم هاته ، إلى مقدمات صحيحة ، فهذه الطريقة تصل إلى نتائجها الصحيحة في جل الحالات وعلى مدى بعيد إنها تشير إلى أنه إذا تم الحفاظ على هذا النهج ، فإنه سيتج استقبالا الحقيقة أو ما يقترب منها فيما يخص مجمل القضايا»⁽³⁴⁾

وبعبارة أخرى ، فإن الأمر يتعلق بالوصول إلى قاعدة عامة انطلاقا من حالة خاصة . وتلك هي العادة المخصوصة التي تصنف معلومة جديدة ضمن معرفة عامة . ويشكل هذا الحكم - داخل هذه الحالة النهائية - حركة ثانية داخل السيرورات التي يطلق عنها فعل التأويل الناتج عن دخول المؤول الديناميكي ساحة التأويل .

(34) Peirce Ecrits sur le signe, p 187

3- أما السرورة الثالثة فتفقد هذه المرة - عبر نمط خاص في الإحالة - إلى أحكام ذات طبيعة استنباطية. ويوصف المؤول في هذه الحالة بـ "الاستنباطي" (déduction) لأنه يستند من أجل تحديد الدلالات الخاصة بمسير ما - إلى معرفة عامة منفصلة عن الفعل المباشر (السخ الخاصة للفعل) ويصف بورس هذه العلاقة بقوله «إن الاستنباط حجة يتحدد المؤول داخلها من خلال انتمائه إلى قسم عام من الحجج الممكنة والمشابهة. وهذه الحجج هي من العمومية لدرجة أن كل المقدمات الصحيحة داخلها ستؤدي، عبر التجربة، إلى نتائج صحيحة.»⁽³⁵⁾ ولعل هذه العمومية هي التي تجعل من هذا المؤول سقيا وخارج أي سياق فهو كذلك لأن المعرفة التي يستند إليها في عملية تأويله، معرفة عامة وتخص القضايا الكبرى التي تشكل مقدمات برهانية لتحديد الحالات الدلالية الخاصة، أي تلك التي تنتجها سياقات معينة.

إن ما يمكن استنتاجه من هذه التصنيفات وعبرها هو أن المؤول النهائي ليس آلة لإنتاج الدلالات والمعاني، كما أنه ليس صياغة نهائية لدلالات معينة تعد إثباتا لمعرفة قارة. إنه على العكس من ذلك، ورغم مطهره الانفلاقي، يشير إلى أن الدلالات متعددة تعد السياقات التأويلية، وأن التعدد لا يوجد في الواقعة، إن كل تعدد إنما يعود إلى الدات التي تقوم بالتأويل وقدرتها على استحضار كل السياقات التي ترر هذا التأويل وترفضه.

وبطبيعة الحال فإن هناك العديد من التفسيرات والتصنيفات

Peirce Écrits sur le signe, p 186 (35)

الفرعة المتولدة عن هذه الآلة التأويلية، لكننا لم نشأ إيرادها لاقتناعاً العميق بأن كل نظرية تولد محملة بالكثير من التمييزات الدقيقة التي تحددها في جريئاتها الصغيرة، ولكنها كلما تقدمت في الرمن تحلصت من الكثير من عناصرها في أفق خلق صيغة معرفية قادرة على استيعاب ما توفره الوقائع الجديدة التي تحتاج إلى تعبير في الرؤية من أجل خلق حوار وتواصل بين نظريات أخرى

ولم نعمل ذلك، من جهة ثانية، لأن غايتنا الأساس هي تفصيل ما قلناه في المصل الثاني من هذا الكتاب على شكل أحكام مكثفة وشديدة الاختصار. وهذا ما يفودنا إلى خلق نوع من التواصل بين ما يقدمه بورس كتصور نظري مفرق في التجريد والعمومية، وبين الممارسة النصية التي تقتضي الحذف والتعديل والتحرير.

وهذا الأمر ممكن من خلال إدراج ما يقدمه بورس ضمن تصورات عرفت مانعها الكير بقضايا المعنى، كالسميات السردية والأشكال التحليلية المتفرعة عنها فالمهح ليس أدوات ومفاهيم معزولة ومفصولة عن بعضها البعض، إن المنهج - من خلال هذه الأدوات والمفاهيم - هو في المقام الأول تساؤل حول المعنى وتساؤل حول طرق إنتاجه، وكل مفهوم مرتبط بقضية، بل بقضايا وبدونها لن يكون له أي معنى» (36).

Gilles Deleuz, Félix Guattari: Qu'est ce que la philosophie, Ed Minkut, (36) 1991, p 22

4- الممكنات الدلالية وسرورة التأويل

إن ما انتهينا إليه في الفقرة السابقة (ماقلناه عن نهائية التأويل) هو اندي مدعنا الآن إلى وضع تساؤل محرج - من أين تأتي هذه القوة المبطقية الأصلية التي ينبثق منها التصنيف الدلالي النهائي المشار إليه؟ وبعبارة أخرى، هل نحن أمام مستوى معياني خاص يكثف فيه المنتج السلوكي المنبعث من الممارسة الإنسانية في أفق تحولها إلى قوة ضابطة لكل الأوجه المحسوسة؟ أم نحن أمام مضامين فكرية مودعة في النهر بشكل سابق على الممارسة الإنسانية في تجلياتها المتعددة؟

للجواب عن هذه الأسئلة يجب تحديد زاوية نظر أخرى يمكن أن يتحول عبرها المؤول النهائي إلى سدرئيس لتحديد أشكال التحقق المنبثقة عن أصل مجرد. فكل ما هو متحقق يمتلك بهذا الشكل أو ذاك، أو في هذا الأفق أو ذاك، سقفا يبرره ويفسره ويضمن تداوله ومقوليته. إن هذه الخاصية تصدق على جميع الوقائع دون استثناء. فالسلوك الإنساني مصوغ من سلسلة من الأفعال البسيطة التي تتحول مع الزمن إلى أشكال سلوكية عامة هي ما يطلق عليه "العادة" أحياناً، وهو ما يدرجه ضمن القيم أحياناً أخرى.

ويجب ألا يؤول هنا الكلام على أنه نفي لمرجعية مادية للفعل، والاستعاضة عنها بسقف مضموني تملأه قوة توحد خارج الممارسة الإنسانية. إن الحديث عن تنظيم مجرد للقيم الدلالية هو صبغة أخرى للقول بأن القانون لا ينبثق عن الواقعة الخاصة، والمانون (العكر أو الضرورة في لغة مورس) هو صبغة أخرى للقول

إن الواقعة تطمح، باستمرار، إلى امتلاك وجود استقبالي دائم وهذا الوجود الاستقبالي مصدره الشكل الذي يحتوي كل الوقائع المحصورة. فمقولة "الشر" مثلاً، باعتبارها قيمة دلالية، ليست مرتبطة في وجودها المجرد بأي سياق، إنها هالكي تشير إلى أن مجمل الأفعال الدالة على "شيء يمكن أن يؤول باعتبارها إساءة للآخر" يجب أن تصنف ضمن خيانة الشر.

وبناء عليه، فإن مقولة "الشر" تشتمل على مجمل إمكانيات التحقق، أي تقوم بتحديد مجمل الأوجه التي يتجسد من خلالها كل ما يمكن أن يدل على الشر في سياق خاص. إنها "متصل" (continuum) غير دال من خلال خصائصه الذاتية ولكي تكون لها قدرة التدليل لا بد من ردها إلى ما يكونها، ولحظتها تتحول عناصرها الداخلية إلى مسيرات دلالية.

يمكن القول إذن أننا أمام مستويين يصنف ويؤول ضمنهما العمل الإنساني: مستوى "خارج-سمباني" ويتضمن مجمل التصيغات القيمية المجردة والقارة. إن هذه القيم توحد خارج الممارسة السيمائية لأنها انفصلت عن العمل الخاص، وهو ما يحدد هويتها المميزة. ومن جهة أخرى هناك ما يتمي إلى البعد السيمائي بحصر المعنى، ويعين هذا المستوى كل ما يدرك كتحقق محسوس ضمن سياق خاص. إن التفاعل بين المستويين هو ما يصمم استمرارية الحياة ومعقوليتها. فبدون سقف مجرد لا يمكن تصور فعل خاص، كما أن كل فعل خاص لا بد وأن يصنف عاجلاً أو آجلاً - ضمن خيانة تبرر وجوده واستمراره.

ويمكن صياغة هذه الإشكالية بطريقة أخرى . لنفرض أنا أمام *
 عادة * معينة كما تبدو من خلال السلوك الفردي أو الجماعي . فما
 هو وضع هذه العادة وما هو مضمونها ؟ . إن الحسن السليم يدلنا على
 أن كل عادة هي في الأصل فعل صادر عن شخص ما في زمن ما
 وقضاء ما . ولأن هذا الفعل قد يتكرر مرات عديدة ، فإنه قابل لأن
 يتحول - عندما يتخلص من العناصر التي تشده إلى خصوصية غير
 مميزة - إلى شكل عام تراقب عبره الأفعال المشابهة . إن هذا الأمر
 يشير ثلاث ملاحظات على الأقل :

- أولا يجب التعامل مع كل عادة باعتبارها سلوكا بمضمون
 زمني ، حولته الممارسة الإنسانية إلى صيغة مجردة . إن التخلص من
 الزمنية عبر التجريد لا يكون إلا بهدف التحكم في كل المضامين
 الزمنية .

- ثانيا إن هذه الصيغة المجردة ، بحكم ارتباطها الدائم بالسلوك
 الخاص ، تعني وتطور وقد تولد صيغا جديدة تبنى على أنقاض
 الصيغ القديمة .

- ثالثا ، وهذا هو الأهم ، فإن كل الأشكال التي استقرت عليها
 الممارسة الإنسانية في مرحلة تاريخية ما ، تتضمن بالضرورة رؤية
 الإنسان للعالم وطبيعة علاقته بالأشياء ، وكذا طريقته في التقطيع
 المفهومي الذي ينقل العالم الخارجي إلى ميدان الفكر .

وهي هذه الحالات ، فإن المعمل الخاص هو المدخل الأساس
 لتحديد المضامين المجردة ورسم حجم تطورها . فهو ، بحكم
 ارتباطه بالممارسة الإنسانية وبوجهها المرئي بالتحديد ، يعد وحده
 العنصر القابل للوصف والتحديد والتحليل .

إن هذا المستوي السميائي السابق على التجلي الحاص للفعل (وعن النص أيضا)، هو نقطة الارتكاز الرئيسة نحو فهم كنه المؤول النهائي وطريقة عمله وفق موقعه الجديد. إنه هنا لا يعين " معنى " أي جوهرًا معنويًا مجردًا ومستقل الوجود، إنه يشير فقط إلى إجراء يتم عبره الحصول على قيمة دلالية لا تفهم ولا تدرك إلا باعتبارها خلاصة لهذا الإجراء، وستختفي حتما باختتمائه فما يكون المؤول النهائي ليس مادة بل علاقات، وهو ليس وجودًا ساكنًا بل إجراء. فالمادة المضمونية ليست قدرًا، إنها موجودة في حدود أن هناك إجراء يعمل على إعنائها، وهي موجودة أيضًا في حدود أنها تقوم بتغذية الأشكال المتحققة في وقائع خاصة. من هنا، فإن هذا المضمون الدلالي الأولي هو مصدر الأشكال الدلالية التي تحتضنها السياقات الخاصة.

إن ما يظم التجربة الإنسانية في كليتها هو نفسه ما يحكم بزوغ الدلالة. فإذا كانت الدلالة لا تعبأ بمادة تجليها (كريماس) - فالمعاني لا تستأذن أي شيء لكي تولد وتمارس نشاطها - فهذا معناه أن التجربة الإنسانية كلية وتحتاج، لكي تكشف عن نفسها، إلى مواد تعبيرية باللغة التنوع

وعلى هذا الأساس التقط بورس مفهوم المؤول باعتباره الأداة التي تقسم النواصل بين مجموع الصيغ التعبيرية. فالتعيين ليس حالة نهائية، إنه تشييت لسيرورة في واقعة، هي نفسها ستؤول باعتبارها نقطة بلئية لسيرورة جديدة. ولعل هذا ما دفع ر. ويبر مارتني (R Marty) إلى الاعتقاد بأن مفهوم " حقل المؤولات " شبيه بمفهوم

السنن الثقافي " ، غير أنهما مختلفان . فالأول أكثر شمولية وأشدّ حدلية من حيث إنه " كوني محسوس " (un universel concret) في حين يتعبر الثاني بأنه " كوني مجرد " (un universel abstrait) ، أي معصول عن لحظات تشكله . (37) .

إن سلسلة التحديدات هذه تضعنا مباشرة في قلب إشكالية تناول المعنى والإمسك به وتحديد سبل تجسده في وحدات سياقية " تجعل منه كياناتاً قادراً على التدليل " (38) . فما يتم تكثيفه عبر الفعل الخاص هو نفسه الذي يتحول إلى مادة ، أي إلى كون قيمي يعطي السلوك الخاص ، وكل قيمة ليست سوى حكم خاص بالفعل المنحقق .

من هنا ، فإن التدليل لا يوجد خارج الفعل وخارج مداراته ، إنه هو التدليل ؛ وتصور مسير تدليلي يحتاج إلى تحويل ما يمثل كعلاقات لازمنية وغير موجهة ، إلى عمليات تُسرّب السياق كشرط أساس للإمسك بالدلالة . وتلك هي القاعدة الأساسية التي انطلق منها كريماس لتحويل عالم المعنى إلى سيرورة " إنتاجية " دائمة التحول : أصلها معلق في أشكال مجردة (البنية الدلالية الأولية) (39) ، ووجهها المحسوس يتحقق في سرورات عبرصوص بجميع الأحجام والأشكال والأنواع . فمن قلب " المجرد الساكن " ينبعث المتحرك الفعلي ، ولن يقود المتحرك الفعلي إلا إلى إعادة

(37) R. Marty La théorie des interprétants , in Langages n° 58 , p 37

(38) Greimas , Du sens , p 162 يقول " mettre le sens en état de signifier "

(39) للمزيد من الاطلاع على هذا التصور انظر - Greimas , Du sens - وخاصة

éléments d'une grammaire narrative.

les jeux des contraintes sémiotiques.

صياغة المضامين وتوزيعها وفق مستجدات الممارسة الإنسانية . إن سلسلة الاحالات كما يتصورها بورس تجد هنا صنداها ومردوديتها .

وبما أن الوقائع الخاصة (الوقائع اللسانية وغيرها) هي سيلاتنا الوحيد للتعرف على المضامين القيمية المجردة ، فإن تحقق هذه الوقائع لا يمكن أن يكون إلا جزئيا . فالسيرة التدليلية المنبثقة من هذه الواقعة تعد اقتطاعا لجزئية دلالية معينة وإدراجها ضمن مسار تأويلي يصمن لها الاستقلالية في الوجود المعنوي ، ويضمن لها ، في الآن نفسه ، ارتباطها مع أصلها المولد ، أي علاقتها بالوحدة التي تحتضنها . ذلك أن تنظيم المعنى عبر أشكال خطابية متنوعة يفترض التحول من التصور الاستبدالي للوحدات إلى وجهها التوزيعي . فعوض أن ننظر إلى الشر في ذاته باعتبار تعريفه الإيجابي ، علينا أن نستحضر مجمل الوقائع القابلة لاستيعاب المضامين المتعددة التي تحيل عليها مقولة " الشر " .

وبناء على هذا ، إذا كانت الكلمة هي بالتحديد سلسلة من الممكنات الدلالية ، (كل كلمة تشتمل على معاني متعددة) فإن إدراجها ضمن خطاب خاص يقلص من هذه الممكنات عبر تحديد سقف دلالي موحد للخطاب وناظراته . والمخالصة أن كل وحدة من الوحدات التعبيرية تحتضن داخلها سلسلة من القيم المودعة في مؤولات تقوم بتنظيمها . إنها وحدات مضمونية لا تتحقق إلا عبر مسار دلالي خاص ، وكل مسار قد يولد آخر فرعيا وهكذا دواليك . ذلك أن كل إمكان دلالي هو في واقع الأمر استعمال خاص للكلمة . ومن هذه الزاوية يمن تصور الممكنات التأويلية التي يوفرها تصور

من هذا النوع . فالكلمات تستفي ، لكي تحل محلها السياقات التي قد تشير ها هذه الكلمة ، وما أكثر السياقات في حالة النص الإبداعى .

ذاك هو الأساس الذى انطلقت منه مدرسة باريس السميائية في تصور ها للدلالة والسرورية وأشكال تجليهما . وهو الأساس الذى عابه عليها بول ريكور (P. Ricoeur) ولم يستسعه أيضا فلا يمكن ، في رايه ، الحديث عن مستوى سميائي سابق على التجلي اللسانى . صحيح قد يكون بالإمكان أن نقرأ الأول انطلاقا من الثانى ، إلا أننا لا يمكن أن نتحدث عن مستوى سميائي سابق في الوجود على التجلي اللسانى (40) .

وسيعود الفصل ، ربما ، لمقولة المؤول النهائى في تجاوز هذا التعارض الذى يقيمه ريكور بين المستويين . فالأمر ، انطلاقا من مقولة المؤول ، لا يتعلق بأسبقية هذا المستوى على ذاك ، بل يعود إلى سرورية من طبيعة واحدة ونتائج مختلفة . ففي البداية تؤكد السرورية أشكالا عامة تعد تكثيفا تجريديا للفعل الخاص . وفي الحالة الثانية فإن إدراك المعنى وشروط إنتاجه وتداوله يمر عبر الممارسة الدلالية بوجهها اللسانى في حالة النصوص ، وبوجهها الفعلى في حالة اللغات غير اللسانية . فكل تأويل يستند في إيجاره إلى تحديد موقع العنصر الموضوع للتأويل ضمن خانة سابقة وهذا ما يفسر توزيع بورص للممارسة الإنسانية على مستويين . أحدهما سميائي والثانى خارج - سميائي ، الأول يرصد الفعل ضمن لحظة التحقق الخاصة والثانى يكتفه ويمنحه وجهها مجردا .

(40) Ricoeur, Paul: La grammaire narrative de Genes, Actes séminaires, 1980

الفصل الخامس

السميوزيين الإنتاج والتلقي

توقفنا في الفصل الرابع عند فكرة التأويل كما تبدو من خلال التعريف الذي يعطيه بورس للعلامة ومن خلال ذلك حاولنا معالجة مجموعة من القضايا التي يثيرها فعل التأويل وأشكال تجلياته وفعل التأويل، كما رأينا، مرتبط أشد الارتباط، في فكر بورس، بمقولة المؤول. فالمؤول هو الذي يقوم بالتوسط بين أداة التمثيل وموضوعاته. فالعلامة، في تصور بورس، لا يمكن أن تقوم لها قائمة إذا انتفى الرابط 'القانوني' بين الأول والثاني، فهو وحده الضامن لصحة العلامة ومعقوليتها. وبالإضافة إلى ذلك، فإن مقولة المؤول تحتل موقعا هاما داخل نظرية ممكنة للتأويل. فالتأويل ينبثق من حركة الإحالات التي تولدها العلامة، لكي ينتشر في كل الأعاق معايقا كل الحاجات التي تهرزها الممارسة الإنسانية. فكل حاجة من الحاجات الإنسانية تفرض تمييزا دلاليا يستجيب لمضامبها. فما التأويل، وفق هذه النظرة، سوى استجابة لتعدد هذه الحاجات وتنوعها.

وهكذا، إذا كانت الإحالات الناتجة عن تمثيل أول تنطلق من فعل تأويلي يكتفي بحصر المعطيات الأولية الممتمة للتحرك المشتركة، فإن التخلص من لحظة التمثيل هذه تقتضي إخضاع هذا المؤول لدرجة تخرج به من نطاق التمثيل المباشر والمألوف لكي

تسكنه عوالم غير مرئية من خلال التمثيل الأول، وهذا ما يفتح الباب واسعا أمام سلسلة من التأويلات التي تستدعي، مع كل مسار تأويلي، بناء سياق خاص انطلاقا مما تقترحه العلامة في صيغتها البدئية. وذلك ما كان يطلق عليه بورس بالغابات التي يتم وفقها أي تأويل، وليست هذه الغابات سوى حاجات الذات المؤولة.

إن هذه السيرة كما رأينا ذلك في الفصل الرابع لامتناهية من حيث المبدأ، إلا أن الغابات الخارج سمائية، وهي غابات تتحكم إلى حد كبير في كل فعل للقراءة، توجه التأويل نحو انتقاء مدلولات وإقصاء أخرى.

من هذه الزاوية سنحاول تناول ما يشكل عصب هذه السيرة، أي ما يطلق عليه بورس السيموز (انظر الفصل الثاني). وسنعمل على تحديد كنه هذه المقولة وتحديد عالمها وطريقة اشتغالها في علاقتها بفعل القراءة. فالتأويل ليس معطى خارج حدود الذات التي تقرأ وتؤول، فهو ليس وليد ما تحتزنه هذه الذات من معاني بشكل سابق عن الولوج إلى عالم النص. فالأساس الإحصاري الذي تقدمه العلامة من خلال حالة التمثيل الأولى ليست سوى محفز يقترح نقطة بدئية للتأويل، ولا يمكن أبدا أن يكون حزاننا لكل التأويلات والذات التي "تجسد" هي التي تطلق العنان لفعل التأويل ذلك أن "المذاق الحلو لا يوجد في مادة السكر وحدها، وليس حكرا على حاسة اللسان وحدها بل هو تفاعل بين المحفلين". (1)

Roland Fischer. L'Analyse structurale de la réalité, in Diogenes, 129, 1985, (1) p 46.

ولهذا السبب، فإن مردودية هذا المفهوم لن تتضح إلا إذا ربطناه بمفهوم مرتبط أشد الارتباط بفعل القراءة وعملية تحديد الدلالات الممكنة داخل النص، ويتعلق الأمر بما يسميه إيكو بالتخمين. والتخمين كما سنرى ليس مضمونا سابقا عن النص بل هو فرضية للقراءة. فكل قراءة يحكمها تصور مسبق - على شكل إرغاصات أولية ومبهم - يحدد التحيينات المقبلة، وتحكمها من جهة ثانية، عاية تأويلية تهدف إلى الوصول إلى نقطة دلالية بعينها ضمن سيرورة تأويلية محددة بسياق خاص.

وستأول في هذا الفصل هذا المفهوم من زاوية مردوديته في تحديد أسس التأويل وتعددته وكذا ميكانيزماته في الإطلاق والنمو والاضمحلال استنادا إلى التصور النورمي العام لفعل العلامة. وهذا أمر ممكن من خلال تحديد موقع التخمين من استراتيجيات فعل القراءة المتميز دائما بالانفتاح من جهة، وتحديد موقعه من الغايات التي تحكم فعل التأويل من جهة ثانية، فالعلامة لكي تضمن صحتها تحتاج إلى نقطة إرساء استدلالية يمكن معها القول إن العلامة تعني شيئا ما.

السميوز سيرورة لإنتاج الدلالة

لقد رأينا فيما سبق أن الترابط الموجود بين العناصر المكونة للعلامة هو ما يشكل السميوز. والسميوز، كما أشرنا إلى ذلك في الفصل الثاني، سيرورة في الوجود والاشتغال وإنتاج الدلالات فالعالم لا يشكل أي شيء قبل أن يتسرب إلى رحم السميوز على شكل علامات من جميع الأحجام والمواد. فالمعروف أن كل

الأشياء تطمح لاحتلال موقع داخل حركية هذه الكيان الدائم الحركة، وما يوجد خارجها هو " أحداث " طبيعية عرضية بلا قيمة ولا ذاكرة ولا تاريخ. فلا غرابة أن يجعل بورس من العالم أجمع بكائياته وأشياءه نسيجاً لا ينتهي من العلامات. فكل ما في هذا الكون خاضع، أو يجب أن يخضع، لسمطقة (sémiotisation) تنقله من بعده المادي إلى ما يشكل جوهره العلامي، أي بؤرة للدلالات المتنوعة.

وهذا التصور وحده يمكننا من تجاوز كل التعارضات المفترضة بين ما هو ممثل، لغة، داخل النص وبين ما يمكن أن يوجد خارجه على شكل عوالم تحيل على جواهر مزعومة لا تعطىها اللغة. فكل ما يحضر داخل النص ليس سوى تمثيل يعيد صياغة تمثيل سابق، فالنص لا يبنى في انفصال مطلق عما يحيط به، بل هو مرتبط في وجوده بكل النصوص السابقة وكل النصوص المحيطة أو المسقط على شكل إichات قابلة للتحيين.

استناد إلى هذا، فإن العالم الذي تحيل عليه النصوص - ما يتصل بالكائنات والأشياء والأهواء والرغبات والأحلام - عالم ينمو ويكبر ويضمحل داخل نسيج الأكوان الدلالية التي تؤسسها هذه النصوص، أي داخل ما يطلق عليه بورس بالسميوز (2). إن هذا العالم، ارتكازاً على هذه المسلمة، محكوم بسلسلة من الإحالات الذاتية التي توضح نفسها بنفسها اعتماداً على قوايتها الداخلية من

(2) يتحدث إلييرو هيرود عن السميوز بقوله: " إن العالم الذي تحيل عليه العلامات عالم ينمو ويضمحل داخل نسيج السميوز " انظر

جهة ، واستنادا إلى منطق الإحالات ذاتها من جهة ثانية . فما يطلق عليه "الواقع" و "المرجع" و "الموضوع" و "الشيء الموجود في العالم الخارجي" ، "كيانات" لا يمكنها أن تلج عالم التدليل ، أي عالم النصوص وإنتاج المعاني ، إلا من خلال بوابة الإحالات الرمزية التي تقود إلى خلق تصورات متنوعة تتكفل السميوز بصياغة حدودها القصوى والدنيا ، الحقيقية منها والوهمية ، المباشرة منها والرمزية .

فكل شيء يوحد داخل النص : فالنص بذرة للتمثيل وسند لمنطق الإحالات ، وهو ما يمنح للكون الدلالي انسجامه وتناظره . وكل شيء يوجد خارجه أيضا ، فمناصر النص تهاجر نحو أقاليم أخرى بحكم التجاور والإحالة الرمزية والتذكر والتلميح : لا يمكن مثلا صياغة خطاب عن "الأبيض" دون إسقاط آخر يخص "الأسود" ، ولا يمكن الحديث عن "الأمرأح" دون أن يلوح في الأفق ما يعيل على "الأحزان" .

استنادا إلى هذا ، فإن الضمانة الوحيدة على تماسك النص وانسجامه هي بالوسط هذا الفصل بين المتحقق والسمي ، بين المعطى المباشر وبين ما يشرب - في غفلة عن الكلمات أو بتواطؤ منها- إلى النص ليشكل ذاكرة الخطاب وذاكرة القارئ ، وهو أيضا ما يرسى قاعدة للحوار بينهما .

ولهذا ، فإن الأصل في التمثيل (أي بناء نص روائي أو صياغة قصيدة شعرية أو رسم معالم نص مسرحي . . .) هو القيام باقتطاع ما يصلح لبناء كون مستقل بذاته (بورس يقول يجب اختراق المتصل لإنتاج علامة) . وسيظل إدراك هذا الكون وفهمه وتأويله مع ذلك

مشروطاً باستحصار ذاكرته الكبرى، أي محيطه المباشر وغير المباشر. فالتداخل بين الموضوع المباشر والموضوع الديناميكي⁽³⁾ يشكل الدعامة الأساس في الانتقال بين المتحقق من خلال التجلي المباشر للنص، في حين يتخذ الرجوع الدائم إلى الموضوع الديناميكي شكل ارتكاس ذاتي نحو لا وعي النص، فكل إحالة هي في واقع الأمر إسقاط غير مباشر لإحالة أخرى. لهذا يحتاج النص أحياناً إلى حسم في دلالاته. وفي هذا الانجاء، فإن الانتقال من الموضوع الأول إلى الموضوع الثاني يتخذ، في تصور بورس، شكل أحكام دلالية (أحياناً منطقية) ضابطها الأساس هو المؤول والناظم لها هو السميز.

وهكذا عوض البحث عن معادل "موضوعي" في عالم غير عالم النص بوجوه المتحققة والضمنية أو المشار إليها، وجب البحث في أشكال اشتغال نسيج السميز ودورها في نسج خيوط عوالم نطمنس إليها وتعامل معها باعتبارها جزءاً من عالمها الخاص وباعتبارها تشكل أقصى نقطة داخل السلسلة التدلالية «السلسلة اللامتناهية من التمثيلات تحتوي على شكل مطلق الوجود هو ما يشكل نهاية السلسلة، فكل تمثيل يحتوي على تمثيل سابق عنه». (4)

فما هو مصموم مقولة السميز وما هو موقعها ضمن الفعل الإنساني المتميز بقدرته على الإنتاج الدائم للمعاني؟ وما الرابط بين هذه السيرة التدلالية وبين ما نطلق عليه "قرصيات القراءة" (ما

(3) حول الموضوع المباشر والموضوع الديناميكي انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب

(4) أمبيرثو إيكو، التأويل بين السمات والتمكيمات، ترجمة، سعيد منكراد، المركز

الثقافي العربي، بيروت 2000، ص 133

يطلق عليه إيكو التخمين (topic) من جهة، وبينها وبين القارئ الذي يستدعيه بناء معني أو معاني نفس ما .

نعمد السميور في معابها " العادي " والمباشر سيرورة منحركة لإنتاج الدلالة وتداولها واستهلاكها، سيرورة مستتهدى إلى الدويان في فعل يتقمص مظهر العادة والقيم والتقاليد وكل أشكال السلوك التي تتحول مع الزمن إلى معيار يبنى على أساسه العنصر المنحقق . وبعد هذا الفعل من زاوية السميوز «عادة داخل الإنسان وقانوننا داخل المجتمع» (بورس) . وبعبارة أخرى، إن الأمر يتعلق بالنظر إلى الدلالة باعتبارها فعلا يسجز داخل سيرورة، لا معطى جاهزا يوجد بشكل سابق على الواقعة .

ولقد كان شارل سندرس بورس أول من أدخل مفهوم السميوز إلى ميدان السميائيات بل لقد كان أول من أرسى دعائم نظام للتدليل وإنتاج الدلالات يمر عبر ميكانيزم خاص أطلق عليه اسم السميوز . والسميوز في نظره " سيرورة يشتغل من خلالها شيء ما كعلامة " وتستدعي، من أجل بناء نظامها الداخلي، ثلاثة عناصر هي ما يكون العلامة ويضمن استمرارها في الوجود والاشتغال : عنصر أول يقوم بالتمثيل (ماثول) وآخر يشكل موضوع التمثيل (موضوع) وثالث وسيط بين الإثنين يشتغل كفعل للمفهمة هو ما يقود إلى الامتلاك المكري " للتجربة الإنسانية في مظهرها الصافي " (مؤول) .⁽⁵⁾

استنادا إلى هذا التصور، فإن إنتاج دلالة ما يقتضي استحصار سيرورة تدليلية تقود من أول عنصر إلى آخر عنصر داخل سلسلة من

(5) انظر ما قدمناه في الفصل الثاني من هذا الكتاب

الإحالات التي لا يمكن الإخلال متابعها وانتظامها دون الإخلال بنظام التدليل ذاته : فكلمة " شجرة " تدل لنا تستطيع التمييز داخلها بين .

1- أداة للتمثيل (يتعلق الأمر بالمتوالية الصوتية التي مستعين بها من أجل استحضار عالم ذهني ، وقد يتعلق الأمر بمادة أخرى للتمثيل).

2- شيء ما موضوع للتمثيل ، (سواء كان هذا الشيء الموضوع للتداول واقعيًا أو متخيلاً أو قابلاً للتخيل).

3- العالم الذهني (المكر أو القانون) الذي يربط رمزيا بين الموضوع وأداة التمثيل . وهذا المصير هو الذي يقوم بـ ' تبرير ' العلاقة الرابطة بين العنصر الأول والثاني .

إن غياب أي عنصر من هذه العناصر الثلاثة سيؤدي إلى تدمير العلامة ومن ثم إلى تحجيم قدرتها على إنتاج دلالة ما .

إن هذا الترابط بين العناصر الثلاثة (والأمر يتعلق بكل الأشكال التي تنتجها التجربة الإنسانية) هو الذي يفسر ما قلناه سابقا عن الترابط بين الداخل والخارج في النص وفي التجربة المنية ككل . فما دمنا لا نستطيع تحديد كنه أي شيء خارج أدوات التمثيل ، فإن التجربة الإنسانية في كليتها تعجز عبر وجهها الرمزي ، ولا يمكن إدراكها إلا عبر هذا الوجه .

ويمكن القول ، في هذه الحالة ، إن الدلالة ليست معطى جاهزاً ! يوجد خارج العلامات وخارج قدرتها في التعريف والتمثيل ، فالمعنى لا يوجد في الشيء وليس محايثاً له ، إنه يتسرب إليه عبر

أدوات التمثيل، وهو ما يشير إلى أن إدراك الكون ليس مباشراً،
والشيء لا يوجد في ذاته، بل مثواه الوعي الذي يدركه، إنه لا يتسلل
إلى الوعي إلا عبر أشكال رمزية مختلفة. «فالإنسان لا يعيش داخل
كون مادي خالص، بل داخل عالم رمزي. وتعد اللغة والأسطورة
والفن والدين عناصر من هذا الكون، إن الأمر يتعلق بالحيوط التي
تنسجها الرمزية، وهو ما يشكل اللحمة المتشابكة للتجربة
الإنسانية»⁽⁶⁾ ولهذا فإن المعنى لا يوجد خارج اللغة، إنه مبثوث في
فعل الإبلاغ والكلام والإنتاج.

وعلى هذا الأساس يمكن فهم البناء النظري الذي تندرج ضمنه
هذه المقولة. فالتصور النظري العام الذي يقدمه بورس للسميوز
يستند إلى مبدأ سميائي يقول بإمكانية وجود إحالة من المحتمل ألا
تتوقف عند حد بعينه «فإذا توقفت سلسلة المؤولات هاته عند حد
بعينه، فلن تصل العلامة إلى حالتها المثلى»⁽⁷⁾ فعندما يتم التمثيل
يفصل النص عن قصدية صاحبه فتعطل الدلالة من عقاليها، ويصبح
إيقافها عند حد بعينه أمراً مستحيلاً. فالتمثيل يحيل على الشيء
الممثل وفق مبدأ للتوسط، ولا يقود التوسط إلى تعيين معنى، وإنما
يمنع السيرة الدلالية على كل الاحتمالات الممكنة.

وبعبارة أخرى، فإن العكس لا يمكن أن يترجم إلا في فكر آخر،
فمادام الشيء في حد ذاته علامة، فلن يكون مجدياً البحث عن إحالة
خارج ما يرسمه الفكر، أي خارج ما ترسمه العلامات داخل سيج
السميوز.

(6) Ernest Cassirer . Essai sur l'homme, éd Minuit, Paris, 1975, p 43

(7) أميرو إيكو : التأويل بين السميائيات والتفكيكية، ص 128

ورغم ذلك، إذا كنا لا نستطيع تصور نهاية بعينها للمعنى التأويلي، فنحن قادرون، مع ذلك، على رسم بداية له. فالأول محدد والنهائي محتمل، والبداية خطوة أما النهاية فدروب تسير في جميع الاتجاهات بلا أفق ولا تخوم. ولهذا يمكن القول إن فعل العلامة مرتبط داخل السميوز بنشاطين مختلفين ومتكاملين يفرد أحدهما إلى الآخر :

1- النشاط الأول مرتبط بفعل إنتاج الدلالة في مستواها الأولي، أو مستواها التقريري الحرفي. فالطابع " الموضوعي " (أولنفل الطابع البيداتي) للمعنى يتحدد من خلال وجود مادة أولية منها تشتق كل المعاني " النسمية " الموجهة نحو الاستجابة لحاجات أولية. فالعلامة تعين وتسمي وتشير، وفي هذه الحالة، فإنها لا تتجاوز حدود الإشارة إلى ما هو معطى من خلال حدود فعل التمثيل ذاته : أي ما يخص معنى العلامة ومعنى النص ومعنى الواقعة وذلك ما تقتضيه عناصر التجربة المشتركة.

وبما أن الخروج من دائرة التعمين إلى ما يشكل بحق عالم التأويل بمفهومه الواسع يقتضي التخلص من مقتضيات الإحالة المباشرة (الإحالة الأولى) وإعادة ترتيب العناصر وتنظيمها وفق علاقات جديدة، فإن الضمانة الوحيدة لسلامة هذه الحركة التبديلية وقدرتها على إنتاج الدلالات المتنوعة هو وجود هذا " الحد الأدنى المعنوي " المرتبط بتجربة حياتية لا تتجاوز حدود الاستجابة للسعد المعنى فيها (يمكن بالتأكيد في هذه الحالة التساؤل عن فحوى المعنى ومتى تكون الحاجة نفعية أو مرتبطة بلذة. وهنا أيضا يقتضي الأمر تحديد السياق المباشر لفعل العلامة). وبعبارة أخرى، فإن التأويل

اللامتناهي يقتضي وجود مدلول أولي (كيفما كان وضعه) تبني على أساسه مجمل المعارف التي تنتجها حركة الإحالات اللاحقة. وهذا ما يقودنا إلى الحركة الثانية ضمن فعل السميوز.

2- الشاط الثاني هو الذي يقذف بالعلامة من موقعها التعيني المباشر، إلى عالم جديد من الدلالات؛ وهذه الدلالات ليست معطاة بطريقة مباشرة من خلال ما يبدو من ظاهر العلامة، بل تشير إلى تجربة ضمنية، فالعلامة تحتوي أو تشير إلى مجمل مكوناتها الأكثر إيغالاً في القدم⁽⁸⁾. فإذا كانت الإحالة الأولى (أو الإحالات الأولى)⁽⁹⁾ تحدد مطلقاً لسيرة ما، فإن الإحالات اللاحقة تخلق سلسلة من المسارات التأويلية التي تدخل عبرها الدات المؤونة (القارئ) كعنصر أساس في عملية إنتاج الدلالات المتنوعة.

ومع ذلك، لا وجود لفاصل بين الشاط الأول والثاني، فلا يمكن تصور واقعة تكتفي بإنتاج دلالة واحدة خاصة بالتعيين، وبالمثل لا يمكن تصور فعل تأويلي لا يسلم بوجود مادة (نص) سابقة عنه. فوظيفة اللغة لا يمكن أبداً أن تقف عند حدود الوصف المباشر للكائنات والأشياء. ولهذا السبب فإن الشاط التأويلي، وفق العايات السميوزية كما أشرنا إليها سابقاً، المعلنة أو الضمنية، فعل كلي، إن كانت آثاره المباشرة هي تعيين دلالة ما (تحديد لتخوم واقعة ما) فإن عمقه لا تحدده سوى الإحالات التي تجعل من أي

(8) Umberto Eco: Les limites de l'interprétation, éd Grasset, Paris 1990, p 371

(9) أو الإحالات الأولى، فإمكان كلمة واحدة أن تدل من الناحية التقريرية البحت على مر جمن محتلمين. المين "المعضو الصري" والمين "الماء الجاري".

سبق سميائي مؤرة للتوالد الدلالي اللامتناهي. و « التأويل اللامتناهي أمر ممكن عند بورس. فالواقع يمثل أمامنا باعتباره متصلا (continuum) حيث لا وجود لكيانات مطلقة » (10).

ورغم إقرارنا المبدئي بأن السميوز لامتناهية في الرمان وفي المكان، فإن ثقل الحاجات الإنسانية الدائمة - التواصلية منها أساسا - يقود إلى تحجيم هذه الطاقة الجبارة وتسييجها ضمن مياقات تمكن الذات من الاستقرار على دلالة بعينها. وباء على ذلك فإن « غاياتنا المعرفية تقوم بتأطير وتنظيم وتكتيف هذه السلسلة غير المحددة من الإمكانيات. فمع السيرة السميوزية ينصب اهتمامنا على معرفة ما هو أساس داخل كون خطائي محدد » (11). وهذا يعني أن السيرة التأويلية - رغم كل ما قلناه - متناهية من حيث التجسيد العملي، أي من حيث ارتباطها في التحقق الفعلي بسياقات خاصة تمنح وحداتها هوية خاصة.

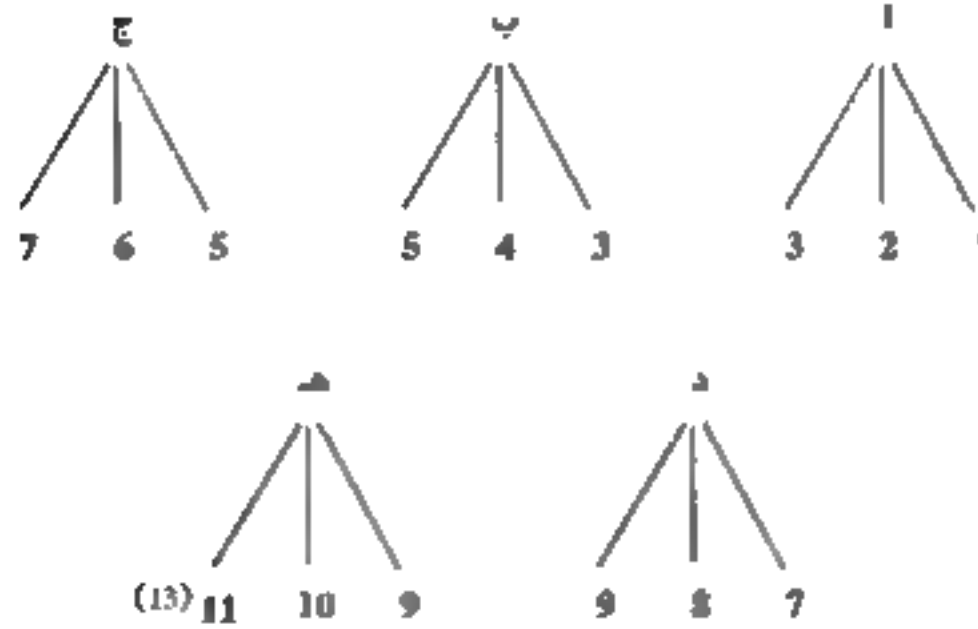
وهذا ما يشكل الفاصل الحقيقي بين ما اصطلح عليه ب « المتناهية التأويلية » (dérive interprétative) وبين السميوز في التصور الذي يقترحه بورس. ففي المتناهية التأويلية تنبعث الدلالة من فعل العلامة كسيرة بلا رادع ولا ضفاف ولا حدود. فما نحصل عليه من معرفة، بعد أن يستند العمل التأويلي طاقاته، لا علاقة له بالنقطة التي شكلت بداية التأويل؛ فإمكان أية علامة أن تعيل على أية علامة أخرى، كما بإمكان أي شيء أن يشير إلى شيء آخر « وفي هذه

(10) إيكو Les Limites p 378

(11) نفسه ص 371

الحالة فإن الإيحاءات تنتشر بشكل مرطاني بحيث إننا كلما انتقلنا إلى مستوى أعلى تم تسيان العلامة السابقة أو تم محوها، فجوهر اللذة التي تخلقها المتاهة تكمن كلية في الانتقال من علامة إلى أخرى، ولا غاية لهذه الرحلة اللولبية بين العلامات والأشياء سوى هذه اللذة ذاتها» (12).

ويقدم إيكو المثال التالي على هذا النوع من التأويل



فلا وجود لأي رابط بين 'أ' و'هـ'، ورغم ذلك يمكن الحديث عن سلسلة تقود من 'أ' إلى 'هـ' استناداً فقط إلى وجود علاقة عائلية بين النقطة الأولى والنقطة النهائية، هذا إن اعترفنا بوجود نقطة نهائية أصلاً. فالسميور في هذه الحالة يتخلص من كل إرغاماتها المرتبطة بالتمثيل الأول (الإحالة على معنى لا يستدعي

(12) نفسه ص 373

(13) أمبيرتو إيكو - التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص 122

سوى التجربة المشتركة لكي يدرك) لكي تسلم نفسها للشخص الذي يقوم بالتأويل لكي يأتي بكل التأويلات الممكنة حتى أشدها عراة وعشية. وبهذا المعنى لا يجب النظر إلى التأويل باعتباره محددًا بعاية بعينها، فعائته المثلى هي ألا يصل إلى أية غاية. (14).

وفي هذا المجال يقدم راستي في كتابه " الدلالة التأويلية " مثالا يصدق، إلى حد بعيد، على الحالة التي نحاول تشخيصها. يقول المثال :

" أنت مساعد، مستظل الطماطم خضراء "

(15) (Vous êtes assistant, les tomates resteront vertes)

تتكون هذه الجملة، كما هو واضح من جزءين ظاهريًا لا رابط بينهما من حيث الدلالة المباشرة التي تحيل عليها الوحدات المكونة للجملة. فإن يُربط مصير الطماطم بمصير الأستاذ المساعد، فذاك أمر في غاية العراة، فلا وجود لأي عنصر في الجزء الأول يسمح لنا بربطه بالملفوظ الثاني، فالأول تحديد لرتبة داخل السلم الجامعي، والثاني يشير إلى حالة من حالات الطماطم

ومع ذلك فإن راستي " نقب " كثيرا و" يش " هي ذاكرة الكلمات، و" عدل " و" رتب " و" أعاد صياغة العلاقات الفعلية والممكنة " بين جزءي الجملة " ليكتشف " في النهاية وجود رابط

(14) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب، ففي هذا الفصل حاولنا التمييز بين نوعين من التأويل ما يقدمه بورس على شكل سموز لا منتهية، وبين ما تقدمه النمكة مثلا باعتباره مناهة تأويلية.

(15) François Rastier, Sémantique interprétative, éd P U F, Paris 1987

بين العجز الأول من الجملة وجزئها الثاني ، وهو ما يشكل ، في نظره ، انسجام الجملة وإمكانية تداولها باعتبارها كونا دلاليا "مقبولا" . وهذا الرابط يتحدد من خلال الفصل بين كيانين :

1- كيان المؤسسة الجامعية التي تحكمها هرمية في الإطارات تجعل من الأستاذ "المساعد" أدنى إطار وأوله ، فهو إذن يشكل مرحلة البداية في الحياة المهنية للأستاذ ، وفي هذه الحالة نكون أمام المعنم / بدئي /

2- حالة الطماطم التي تمر بمراحل لكي تصبح صالحة للاستهلاك . فهي تنتقل من الفجاجة إلى النضج من خلال الانتقال من اللون الأخضر إلى اللون الأحمر . وفي هذه الحالة فإن اللون الأخضر يحيل على البداية ، أي يشير إلى المعنم / بدئي / .

فالمفوضان استنادا إلى ذلك يشتركان في معنم واحد هو / بدئي / . والخلاصة أن الجملة نحتل الدلالة التالية : " أنت مساعد وستظل مساعدا ، ولن تعرف أيت ترقية تنفلك من رتبة المساعد إلى رتبة أعلى ، تماما كما أن الطماطم التي "ستظل خضراء" سيبصياها العفن وتفسد .

والملاحظ أنا في هذه الحالة لا نبحث عن تأويل خاص للجملة ، أو عن إمكانات متنوعة للتأويل داخلها ، وإنما نبحث عما يجمع بين أجزائها المتنافرة ، أي ما يبرر العلاقة بين الجزء الأول والثاني داخل الجملة . والدليل على ذلك أن بإمكاننا أن نضع مكان "المساعد" أي موظف نخضع ترقبته لتسليق مراتب يعيها (الطبيب والمرضى والمهندسين . . .) .

وعلى التقيض من ذلك، فإن مفهوم السميوز، في تصور بورس، يشير إلى شيء محالف تماما لهذا. فعلى عكس المتأهة التي لا تستقر على حالة بعينها، فإن الإحالات المتتالية التي تحيل عليها السميوز لا تقطع صلة اللاحق بالسابق، كما أنها لا تلغي الروابط بين عناصر الشبكة التأويلية الواحدة. فالعلامة تكتسب مزيدا من التحديدات كلما أوعلت في الإحالات، والانتقال من مؤول إلى آخر من هنا، فإن الحلقات المشككة لأي مسار تأويلي تقود إلى إمتاج معرفة أعمق وأوسع من تلك التي تقدمها العلامة في بداية المسار

وهكذا فإن ما يحصل عليه من معرفة في نهاية السلسلة هو تعميق للمعرفة التي تطرحها العلامة في حدها البدني فما تقوم به الإحالات هو تعميق للمعرفة السابقة لا نفي لوجهها البدني. وهذا شيء واضح في تصور بورس للعلامة، فهي عند "شيء تفيد معرفته معرفة شيء آخر"، "فهي تحيل على علامة موازية أو علامة أكثر تطورا".

ولتوضيح هذا التوالد، نستعين بمثال يورده إيكو، في سياق غير سابقا، لكنه يصدق مع ذلك على حالتنا. يقول المثال: "في مواجهة الأضواء المنظمة للسير في مفترق طرق ما، أعرف أن " الأحمر " يعني / التوقف /، في حين يعني " الأخضر " / المرور / لكنني أعرف أيضا أن الأمر / قف / يعني / إجبارية /، في حين أن السماح بـ / مرور / تعني " اختبار حر " (فإمكانني عدم اجبار الطريق). وبالإضافة إلى ذلك، فأنا على علم بأن / الإجبارية /

نعني "ذعية نقدية"، في حين أن / الاختيار الحر / يدل تقريبا على ما يلي "يجب اتخاذ قرار"، (16)

ويقدم للمزيد من التوضيح الترميعة التالية :



وبالتأكيد ففي هذا المثال برهنة كافية على نوعية هذا التوالد الدلالي وميكانيزماته المرتبطة بالإحالات التي تطلق عنان السميوز لارتداد مناطق دلالية من كل الأنواع والأحجام. فداخل هذا التوالد هناك :

1- علاقة بين الوحدات قائمة على المراتب الصاعدي لـ "الكمية المعنوية" التي تتوفر عليها النواة الدلالية المعطاة مع عملية التمثيل الأولى فكل إحالة تضيف قدرا من الدلالة إلى الإحالة السابقة عليها

2 إن نقطة "النهاية"، (إنها نهاية مفترضة، فهي كذلك ضمن سياق خاص فقط) داخل هذه السيرة التدلالية، تقوم بتعميق معرفتنا وما وضع للتداول في الإحالة الأولى. وهكذا، فإن معرفتنا

بالأحمر قد ازدادت وتنوعت دروبها دون أن تفقد، مع ذلك، الصلة بالدلالة التي منحت لها في بداية السلسلة.

من هنا، فإن انتفاء " الطابع المطلق " عن الكيانات المشككة للكون الإنساني، هو بالضبط ما يحد، من زاوية أخرى، من سلسلة الإحالات وتكاثرها. فالقول بنسبية الواقعة معناه القول إن ما يبدو صحيحا في هذا السياق ليس كذلك بالضرورة في سياق آخر وضمن شروط أخرى. وبناء على هذا، فإن «التأويل ليس وليد بنية الذهن البشري، وإنما هو نتاج للواقع الذي تقيم دعائمه السميوز»⁽¹⁷⁾.

ووجود أشكال خاصة من " المؤول " دليل على أن الحركة التأويلية تسير في اتجاه انتفاء دلالة بعينها يمكن أن تستقر عليها الذات التي تقوم بعملية التأويل. فالعامة من المؤول النهائي داخل سميات بورس هي إيقاف سلسلة الإحالات " السرطانية " التي قد تهدد انسجام الكون الدلالي. فالمؤول قد لا يكون علامة في تصور بورس، فهو قد يحيل على فعل، فالفكر " يتحلل " ذاتيا ليذوب في ممارسة بعينها. «السيميوز في هروبها اللانهائي من علامة إلى أخرى ومن توسط إلى آخر تتوقف لحظة انصهارها في عادة، لحظتها تبدأ الحياة ويبدأ الفعل. وكيف يؤثر الإنسان في العالم؟ إنه يفعل ذلك من خلال علامات عرقية، وكيف يمكن وصف العادة إن لم يكن ذلك من خلال علامات تعريفية»⁽¹⁸⁾.

وبلك هي الإضافة الحقيقية لبورس. فعوض أن يتحدد التأويل

Eco: les limites, p 382. (17)

Umberto Eco: le signe, p 205. (18)

من خلال إضافة دائمة لمؤولات جديدة لا تحد من حيث العدد والطبيعة، فإن بورس يتصور إمكانية انصهار التأويل في فعل أو في ما يسميه بـ " العادة " (أو قاعدة للفعل). وهذا النوع من المؤولات التي نصعه السميوز كركيزة لتوجيه التأويل أو إيقافه، يطلق عليه بورس المؤولات المنطقية النهائية، " أي ما يشكل سنداً للفعل والتأثير في الأشياء " .

في ضوء كل ما سبق، فإن النص عندما يتحدد ككيان مستقل الوجود من حيث قدرته على الانفصال عن المادة التي تؤثت الكون الإنساني كله- أي عما يشكل الوجه المتصل للكون- فإن سلسلة المؤولات تميل إلى الانكفاء على نفسها ونبحث عن شكل دلالي تستقر عليه.

إن النص، من هذه الزاوية إذن، لا يشتمل على معنى، ولا حتى على معاني، ولا يضم بين دفتيه دلالة نهائية كلية أو جزئية، بل هو خزان كبير لسياقات بالغة التنوع والتعدد والتجدد. وهذا ما يمسح الذات المؤولة موقعا بالغ الأهمية. فلها وحدها الصلاحية في تحيين هذه الدلالة أو تلك ضمن هذا المسار التأويلي أو ذاك، ضمن شروط " الانتقاء السياقي " والظروف المقامية الخاصة بكل فعل قراءة

وفي هذه الحالة، فإن كل شيء يقاس بالعلاقة الموجودة بين النص والقارئ (أي بين العلامة ومستهلكها)، فصمن هذه العلاقة تتحدد القراءات وتتعدد التأويلات وتتأمل. وعلى هذا الأساس أيضا، فإن الاعتراف بوجود هذه العلاقة هو اعتراف- ضمني أو صريح - بوجود مادة دلالية أولية سابقة في الوجود عن تدخل الذات

الفارقة، وإلا لما أمكن الحديث عن قراءات متعددة لنفس المادة المصمونية الأولية.

ففي المثال السابق الذي يقدمه راسيني، لا يمكن أن تتخاضى عن وجود المساعد والطماطم كيفما كانت التأويلات التي يمكن إعطاؤها لهذا الملفوظ. فحتى في الحالة التي توضع فيها هذه الجملة داخل قية ليلتقطها بعد 100 عام شخص ما، فإنه سيقول " لقد كن هناك في فترة تاريخية سابقة عليها شيء اسمه " الطماطم " و كائن اسمه " المساعد " ، وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك إمكانية للربط بينهما

ويمكن النظر إلى هذه الاستقلالية - على عكس ما يعتقد القائلون بلانهاية التأويل - باعتبارها ضماناً أساسية ووحيدة على عى التأويل وتعددته. إلا أن ذلك لا يعني استقلالية النص بذاته ومعانيه، بل تشير إلى شيء أهم من ذلك بكثير. فوجود منطلق ما معناه أننا لا نؤول ما بداخلنا، ولكننا نقوم، عكس ذلك، بوضع معرفتنا (موسوعتنا على حد تعبير إيكر) في خدمة مادة مصمونية يحتوي عليها النص وتعد منطلقاً للتأويل وأصلاً له.

من هنا، يمكن اعتبار كل قراءة خلقاً لسياق جديد يستمد مشروعية وجوده من المادة الموضوعية للتأويل. وبما أن " الوعي الخالق للعمل الفني " وعي جزئي بالضرورة، فإن النشاط التأويلي لا يمكنه أن يكون إلا من نفس الطبيعة، وذلك لارتباطه بالسباق الثقافي الذي يشع داخل النص. لذا فإن هذا النشاط يصل في مرحلة ما إلى استنفاد كل طاقاته الإبداعية لينتوقف عن إنتاج دلالات جديدة،

ليفسح المجال لوعي جديد ضمن شروط تاريخية جديدة لينتج دلالات تسجيم وحجم الموسوعة الحديثة.

إن هذا البعد الجديد الخاص بالتلقي والذي يضاف ها إلى السميوز هو الذي يبرر الحديث عن مفهوم آخر لا نعثر عليه في تصور بورس. فلقد تبها بورس مرار أن المؤول لا يعني الشخص الذي يقوم بالتأويل، فالعلامة تتج معناها حتى في غياب أي شارح

لذا فإن السميوز تبدو أحيانا وكأنها فعل مفصول عن الذوات التي تقوم بالقراءة، إنها تشتغل في انفصال عن محفل بجسدها في فعل تأويلي ما. ومن هذه الزاوية يضيف إيكو مفهوم التخمين، الذي يشير إلى ما ظل مسهما وغامضا في تصور بورس ألا هو دور المتلقي في إنتاج الدلالات.

ويجب التنبيه أن التخمين لا يمكن اعتباره ثيمة، فالثيمة موجودة في النص، ولا يمكن عله محورا فالمحور يربط بين طرفين داخل مقولة، إنه على العكس من ذلك، وكما سرى ذلك لاحقا، فرضية يستند إليها الفارئ من أجل إنجاز قراءاته.

التخمين : فرضية للقراءة والتأويل

ومن هذا المطلق بالذات، ووفق غايات تأويلية محض، أدخل إيكو إلى التداول التمدي مفهوم التخمين (التخمين)⁽¹⁹⁾ ليشتمل

(19) يرفض إيكو استعمال الثيمة ويفضل استعمال التخمين، لأنه يرى في التخمين ظاهرة تداولية لها علاقة مباشرة بالعمل الذي يعجز القراءه، في حين أن التسم أو التناظر لهما علاقة بالمصنوع الدلالي للنص أو الواقعة.

التلقي من وهم التعدد التأويلي المطلق، ومن الفهم الأحادي للنص في الآن نفسه. فالتنص متعدد القراءات ولكنه ليس لانهائي التأويلات

وكما سنرى لاحقاً، فإن هذا المفهوم ليس مرتبطاً بالمادة المضمومية ولا محكوماً بطبيعتها، بل هو رهين في وجوده واشتعاله بالذات التي توجد في تماس مع هذه المادة. فالتخمين، من هذه الراوية، ليس ثيمة وليس حكماً مسبقاً على المعنى، بل هو تصور أولي و"حدسي" للمعنى. إنه يحتل، عند القارئ، الأشكال الأولى لمقاربة المعنى وفق خطاطة يشناها هذا القارئ ويباشر وفقها عمليات التأويل اللاحقة.

ويعرف إيكو التخمين بأنه فرصة مرتبطة بالقارئ الذي يقوم بصياغتها بطريقة بسيطة على شكل أسئلة من نوع "ماذا يريد النص قوله؟" لتترجم في أجوبة من نوع "ربما يتعلق الأمر بالقضية الفلانية". ويعد من هذه الراوية أداة سابقة على النص. ولا يقوم النص إلا بافتراضها إما ضمنياً وإما بالإشارة إليها صراحة من خلال مؤشرات مثل العوان أو العناوين الفرعية أو من خلال الكلمات /المصاتيح. وإلى هذه الفرضية يستند القارئ في تفضيله لبعض المحصنات الدلالية للوحدات المعجمية التي يتألف منها النص واستعماده لأخرى بغية الوصول إلى الانسجام التأويلي الذي يُطلق عليه التناظر⁽²⁰⁾.

إن التوسط الذاتي الذي يشير إليه مفهوم التخمين يفترض القيام

Umberto Eco . Lector in fabula . éd Grasset , 1985 p 119 (20)

بمصل بين المضامين التي يحتضنها النص وبين العمليات الذهنية المرافقة لأي نشاط تأويلي. فما بين الذات القارئة التي تقوم بالتجسيد (بمفهوم جماليات التلقي)، أي تحيين مجمل معطيات الموسوعة الثقافية وفق حاجات يفترضها النص لكي يسلم مفاتيح قراءاته، وبين المعرفة التي قد نحصل عليها من خلال فعل التأويل، ينسرب "الانتقاء السياقي" كحد فاصل بين التأويل الذي لا تحكمه ضفاف ولا حدود، وبين مفهوم "المسار التأويلي".

ولهذا السبب جعل إيكو من مفهوم التخمين الأداة المركزية في التحكم في دهاليز السميوز، فهو "يقوم بتقليص حجمها وتكثيفها، كما يقوم أيضا بتحديد أوجه التحيين داخلها"⁽²¹⁾، أي تحديد مجمل الإمكانيات التأويلية القابلة للتجسيد من خلال القراءات المتنوعة. فما يكشف عنه التخمين ليس دلالة قارة وثابتة، بل يقوم بعملية جرد للمسارات التأويلية التي يسمح بها البناء النصي ذاته.

إن الأسئلة التي يمكن أن يطرحها القارئ على النص، وكذا الدروب التي يحاول رسمها ليلج من خلالها إلى عالم النص، تلقي المزيد من الضوء على هذا المفهوم. فيما أن القراءة الشمولية للنص (فعل تأويلي جامع لكل السياقات) تدخل في باب المستحيلات (إلا في الحالة التي يقرر فيها القارئ تبني الاختصار والتكثيف وبالتالي التصحية بكل ما لا يستقيم داخل استراتيجيته التأويلية، وفي هذه الحالة يكون أمام قراءة جزئية أيضا)، فإن التأويل - من خلال مفهوم التخمين ذاته - مرتبط بالانتقاء السياقي.

والانتقاء السياقي معناه خلق مسار تأويلي تنظم وفقه عناصر النص وتحين بمقتضاه الخطاطة الثقافية الخاصة بكل قارئ، «وما يشكل التناظر الدلالي (isotopie) ليس تواتر المعانم (sèmes) الموصوعة للتداول، بل افتراض تناظر ما، هو الذي يقود إلى تحيين بعض المعانم، إن لم تقل كلها. ويمكن التأكد من هذا الأمر من خلال الوقائع المحسوسة ويتعلق الأمر هنا بتطبيق مبدأ عام. إن المعنى، حتى ولو تعلق الأمر بأدنى المستويات الدلالية، هو نتاج عمليات تأويلية محكومة باستراتيجية»⁽²²⁾ (التشديد من عندما).

وضمن هذا الانتقاء السياقي ندخل كل 'قواعد الإحالة' التي يبنى النص ويؤول وفقها: الإحالة المباشرة على عناصر النص، الإحالة على ما يقترحه الاختيار التأويلي، الإحالة التي تقود إلى تحيين ممكنات دلالية واستبعاد أخرى ضمن نفس الواقعة. وهذه الإحالات هي ما يشكل محيط النص وما يشكل سياقاته وشروط إنتاجه وقراءته أيضا. فكل هذه القواعد تساهم في بلورة كون دلالي مسجّم يصاح انطلاقا من إعادة تنظيم عناصر تنتمي إلى عالم يعج بالممكنات المتنوعة التي تصل إلى حد التناقض أحيانا

وحكاية ذلك العيلم الإفريقي و' الزوينة التأويلية ' التي أثارها معروفة جدا. فقد طلع علينا أحد المحرّجين الأفارقة بعيلم يحمل عنوان: ' Les dieux sont tombés sur la tête ' (سقطت الآلهة على الرأس) يحكي قصة قبيلة مهملة في أدغال إفريقيا حيث السكنة والهدوء، وحسب تعيب عن العلاقات الإنسانية عقدة التملك

Rastier F. Sémantique interprétative, éd P U F, Paris 1987, p 12 (22)

والتسلط . في هذا الجو المثالي يلقي طيار كان يحلق فوق سماء تلك القبيلة مقبنة كوكاكولا فارغة لتسقط وسط القبيلة محدثة "دمارا اجتماعيا كبيرا" . فمئذ تلك اللحظة ستفقد هذه القبيلة انسجامها ووحدتها وسلمها الاجتماعي نتيجة للمحاولات المتعددة لـ "تأويل" هذه القبنة وتحديد وظيفتها . وبعد محاولات عديدة لاستخدام هذه القبنة والاستمادة من "بركتها" (وهي قد تكون هبة من الآلهة) ، يقرر أهالي القبيلة التخلص منها بالغائها في "أحر الدنيا" وأخر الدنيا في عرف القبيلة هو البحر . حينها تبدأ معامرات بطل الفيلم مع "الأثار" والحرب والانقلابات الخ .

ولقد قرئ هذا الفيلم من زوايا متعددة . نكتفي هنا بذكر قراءتين متناقضتين كلياً . فالقراءة الأولى رأت في الفيلم قمة في تصوير "الصماء الإنساني والنقاء الحضاري" ، فالفيلم يحتفي ويمجد "الإنسان" الذي لم تستعبده الآلة والملكية بعد وظل متشبثاً بإنسانيته وقيمه بعيداً عن الحروب والقتل ، ومن ثم فالشريط دعوة صريحة إلى انثبث بهذا النمط من الحياة ورفض كل ضروب التمدن والحصارة

أما القراءة الثانية فهي نقيص للأولى . فقد رأت في الفيلم عملاً عنصرياً مشيناً ، فهو يعمل بكل الوسائل على تشويه صورة إفريقيا ، إما من خلال التركيز على انقلاباتها الدعوية وعلى تخلفها في استعمال الأسلحة التي تستوردها من الغرب ، وإما من خلال تصوير حياه كائنات مشربة نعيم حارج "الحصارة" وحارج "الناريج" . ومن ثم فهو دعوة صريحة أيضاً إلى الإبقاء على هذا "التخلف" من أجل تأييد الاستغلال والتبعية .

وما يهمنا في القراءتين معا ليس مضمونهما - فتلك حكاية أخرى قد تدفع بنا إلى تقديم قراءة ثالثة لا علاقة لها بالقراءتين السابقتين - وإنما الطريقة التي يستند إليه فعل التأويل . فالقراءتان معا تطلقان من نفس المعطيات التي يقدمها الفيلم على مستوى بنائه المباشر ، وهي المعطيات التي يراد لها أن تحيل على كون أو كوان دلالية بعينها دون غيرها . إلا أن كل قراءة حاولت إدراج هذه العناصر ضمن موسوعة ثقافية سابقة ، وفقها تتم إعادة تنظيم العناصر من أجل إنتاج تأويل خاص

ودلالة هذه العملية أن التأويل لا يوجد في تلك العناصر وليس مرتبطا بتنظيمها المباشر ، بل يبرز من امتزاجه بتلك المعرفة التي تأتي بها كل قراءة إلى النص . لذا يمكن القول بأن الأمر يتعلق في القراءة الأولى كما في القراءة الثانية بمسار تأويلي له قواعده ومنطقه ونتائجه الدلالية .

إن الأمر يتعلق بتوجيه للقراءة . والتوجيه من زاوية السميوز هو بناء مسار تأويلي يقود إلى تحيين بعض عناصر الواقعة واستبعاد أخرى (والاستبعاد لا يعني الحذف ، بل يعني التخذير) . فالطويك إذن لا يكشف عن خبايا النص ، وليس في مقهوره طرح سؤال يجيب عن كل الاحتمالات التفسيرية التي يشتمل عليها النص . إنه انتقائي ، وكل انتقاء هو جواب جزئي - صريح أو ضمني - عن سؤال جرتي أيضا . والجواب عن هذا السؤال يقتضي إعادة تنظيم عناصر النص وفق صيغة السؤال الأول .

وليس عرييا أن يرد إيكو التخمين إلى " الفرضية " " abduction "

(انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب الفقرة الخاصة بأنواع المؤول).
فعلى عكس القياس والاستنباط، فإن الافتراض، في تصور بورس،
لا يتح معرفة ولا يعمل على إشاعتها، إنه فقط تطبيق لحالة نفترض
أنها عامة دون التأكد من صحتها. لهذا فـ"تحديد التخمين معناه إقامة
افتراض يخص الانتظام السلوكي للنص. وهذا الانتظام هو ذاته الذي
يحدد تخوم النص ويحدد في الآن نفسه انسجامه" (23).

إن انسجام النص ليس معطى بشكل سابق على الذات التي تقرأ
وتؤول، وليس هناك انسجام واحد. فكل قارئ يخلق، انطلاقاً من
السؤال الذي يصمه على النص، انسجامه الخاص. ولما في مثال
الفيلم السابق دليل على ذلك. فالعصر الواحد قد يدل ضمن أكثر
من مسار تأويلي، وهو لا يدل على نفس القيمة الدلالية بل قد يشير
إلى قيم متناقضة.

إن مردودية السميور، انطلاقاً من هذا، لا تستند إلى حركتها
الذاتية وقدرتها على توليد أكبر "كمية" من المعاني، بل تفرص
وجود التخمين، وهو وحده الذي يحدد لهذه السميوز حجمها،
سمعتها أو ضعفها، امتدادها أو انحصارها. فالسيناريوهات
والتمثيلات المعنوية قائمة على أساس وجود سميور لا متناهية
وباعتبار طبيعتها هذه، فإنها تستدعي انخراط القارئ ودعوته إلى
تحديد متى يقوم بتوسيع دائرة التأويل اللامتناهي هذا، ومتى يكون
مدعوا إلى إغلاق هذه الدائرة (24).

Eco: Lector in Fabula p 117 (23)

Eco: Lector in Fabula p 113 (24)

إن هذه الحركة لا يمكن أن تتم إلا من خلال افتراض وجود تصور مسبق عن المعنى تختزنه الموسوعة الثقافية للقارئ. وفي هذه الحالة، فإن التخمين، المفهوم الذي يقترحه إيكو، لا ينهض صمام أمان على مصداقية القراءات وصحتها، فتلك مسألة من طبيعة أخرى، وإنما يشير إلى الطابع المنظم للفعل التأويلي، أي تنظيم الدلالة في مسارات تأويلية.

والخلاصة أن كل قراءة هي خلق لسياقات، وكل سياق ليس سوى تطبيق لفرضية التخمين. وإلى حين تجسدها في سياق خاص تظل السميوز لا متناهية. «هي تغلق في كل لحظة ولا تغلق أبدا. ذلك أن نسق الأنساق السميوزية الذي يبدو، بشكل مثالي، ككون ثقافي متصل عن الواقع، يفود في الحقيقة إلى الفعل في العالم لتغييره». إلا أن كل فعل تعبير يتحول بدوره إلى علامة تعلن عن ميلاد سيرورة سميوزية جديدة⁽²⁵⁾. وهكذا دواليك. فهناك من جهة الرعية في تجاوز كل الحواجز وتخطي كل الإرضامات، وهناك من جهة ثابة الغايات النفعية التي تفرض على الذات توقفا في لحظة بعينها، أي إحالة العلامة على قاعدة للعمل تلمس إليه الذات^{*}. وتلك هي الطبيعة الرابطة بين السميوز كفعل تأويلي لا محدود وبين التخمين، الفرضية الانتقائية التي تسبق القراءة بأسئلة قبلية.

«إن هذا التصور الخاص للسميوز باعتبارها فعلا قد يكون لا مناهيا يعد إسهاما هاما في نظرية اللغة. فاللغة تبدو في هذا التصور

(25) نفسه ص 57

باعتبارها ممارسة إنسانية أفق تحييدها هو التاريخ باعتباره زمنية إنسانية. فحقيقة اللعبة لا تكمن في الكشف عن كون مرجمي ثابت بشكل نهائي، ولكنها إنتاج له⁽²⁶⁾.

المراجع

- Benveniste (Emile) : **Problèmes de linguistique générale II** , éd Cahumard 1974
- Calvet de Magalhães (Theresa) : **Signe ou Synbole ;Introduction à la sémiotique de C S Peirce** Ed Cabay 1981
- Carontini (Enrico) : **Action du signe**, Ed Louvain-Laneuve 1984
- Cassirer, Ernest: **Essai sur l'homme**, éd Minuit, Paris, 1975
- Christiane Chauviré: **Peirce et la signification**, introduction à la logique du vague, Ed: PUF , 1995
- Deledalle (Gérard) : **La philosophie Américaine**, éd, Nouveaux horizons, 1978
- Deledalle (Gérard) : **Théorie et pratique du signe**, éd Payot , 1979
- Deledalle (Gérard) : **Lire Peirce aujourd'hui**, Editeur De Boeck-Wesmael, 1991
- Deledalle, (Gérard) : "Avertissement aux lecteurs de Peirce" , in **Langages** n 58
- Deleuz, Gilles, Felix Guattari : **Qu'est ce que la philosophie**, Ed Minuit, 1991
- Eco (Umberto) : **Lector in Fabula**, Ed Grasset 1985
- Eco (Umberto) : **La structure Absente**, Ed, Mercure de France, pp. 66 - 67
- Eco (Umberto) : **Les limites de l'interprétation**, éd Grasset, Paris 1990
- Eco (Umberto) : le signe**, éd Labor, 1988

- **Everett-Dennett (Nicole) : Le processus interprétatif: Introduction à la sémiotique de C .S Peirce** Ed Mardagua 1990
- **Fischer, Roland: L'Analyse structurale de la réalité,** in Diogène, 129 , 1985
- **Gary-Prieur (Marie-Noël) : La notion de connotation (s),** Littérature n 4
- **Greimas, A . J: Du sens,** éd Seuil, 1970
- **Greimas, A . J : Sémantique structurale,** éd Larousse, 1966
- **Kalinowski , Georges: Sémiotique et Philosophie,** éd Hodes-Benjamin, 1985
- **Kant: Critique de la raison pure,** éd Flammarion, 1978
- **Matnberg , Bertil: Signes et Symboles,** éd Picard, 1977
- **Marcuse, Ludwig: La Philosophie Américaine,** éd Gallimard, coll Idées, 1967
- **Martinet, Janne : Clefs pour la sémiologie,** éd Seghers, 1973 - 1975
- **Marty (Robert) : La théorie des interprétants;** Langages 58
- **Mollao (Jean) : Interpréter ,in L'interprétation des textes,** éd minuit, 1989
- **Mounio, Georges: Introduction à la sémiologie,** éd Minuit, 1970
- **Peirce CS: Textes anticarlesiens,** présentation et traduction Joseph Chenu, éd Aubier, 1984
- **Peirce C S: Textes fondamentaux de Sémiotique,** tra Berthe Fonclner-Axelsen et Clara Foz, éd Méridiens Klincksieck , 1987
- **Peirce (CS) : Ecrits sur le signe,** Ed Seuil Paris 1978
- **Rastier, François: Sémantique interprétative,** éd P U F Paris 1987
- **Rastier, François: Sens et textualité,** éd Hachette université. 1989
- **Rethoré , Joelle : La Sémiotique planéoscopique de C S Peirce,** Langages n 58
- **Ricoeur, Paul: La grammaire narrative de Greimas,** Actes sémiotiques, 1980

- Jakobson, Roman: *Essais de linguistique générale* T 1, éd Mouton, 1963
- Savan (David) : *La Sémiotique de Peirce*, Langages 58
- Savan (David) : *La Sémiotique sociale*, éd, P UV, 1987
- Tiercelin, Claudine: *C.S. Peirce et le pragmatisme*, Ed, PUF, 1993
- veron (Eleseo) : *La sémiotique et son monde*, Langages 58

— ركريا ابراهيم كانت أو الفلسفة النقدية ، دار مصر للطباعة ، 1987

— أمبيرتو إيكو التأويل بين السيميائيات والتكميلية ، ترجمة سعيد بكراد، المركز الثقافي العربي ، 2000

بيبليوغرافيا

خاصة

ببعض الأعمال التي الجزت حول بورس

Fisette, Jean

Titre: Pour une pragmatique de la signification/ Jean Fisette

Editeur: XYZ 1997

Chauviré, Christiane

Titre: Peirce et la signification/ Christiane Chauviré

introduction à la logique du vague

Editeur: PUF, 1995

Peirce, Charles Sanders

Titre: Le raisonnement et la logique des choses/ Charles Sanders

Peirce introd. Kenneth Lane Keuer, Hilary Putnam trad.

de l'américain Christiane Chauviré, Pierre Thibaud,

Claudine Tiercelin

les conférences de Cambridge 1898

Editeur: Cerf, 1995

Charles Sanders Peirce / éd. Denis Miéville colloque de

Neuchâtel, 16-17 avr. 1993

apports récents et perspectives en épistémologie,

sémantologie, logique: actes

Editeur: Université de Neuchâtel, 1994

Tiercelin, Claudine

Titre: C.S. Peirce et le pragmatisme / Claudine Tiercelin

Editeur: PUF, 1993

Tiercelin, Claudine

Titre: La Pensée-signe / Claudine Tiercelin
études sur C.S. Peirce
Editeur: J. Chambon, 1993

Deledalle, Gérard

Titre: Lire Peirce aujourd'hui / Gérard Deledalle
Editeur: De Boeck-Wesmael
Ed. universitaires, 1991

Marty, Robert

Titre: L'Algèbre des signes/ Robert Marty
essai de sémiotique scientifique d'après Charles Sanders
Peirce
Editeur: J. Benjamins, 1990

Everaert-Desmedt, Nicole

Titre: Le Processus interprétatif/ Nicole Everaert-Desmedt
introduction à la sémiotique de Ch.S. Peirce
Editeur: Mardaga, 1990

Deledalle, Gérard

Titre: Charles S. Peirce, phénoménologue et sémioticien/ Gérard
Deledalle
Editeur: J. Benjamins, 1987

Peirce, Charles Sanders

Titre: Textes antécédents / Charles Sanders Peirce
Editeur: Aubier Montaigne, 1984

Deledalle, Gérard

Titre: Théorie et pratique du signe/ Gérard Deledalle
introduction à la sémiotique de Charles S. Peirce
Editeur: Payot, 1979

Peirce, Charles Sanders

Titre: Ecrits sur le signe / Charles S. Peirce
Editeur: Seuil, 1978

Thibaud, P.

Titre: La Logique de Charles Sanders Peirce/ THIBAUD, P.
De l'algèbre aux graphes
Editeur: Université Aix-Marseille 1, 1976

Marty, Robert

Titre: L'Algèbre des signes/ Robert Marty
essai de sémiotique scientifique d'après Charles Sanders
Peirce
Editeur: J. Benjamins, 1990

Julien, Mariette

Titre: L'Image publicitaire des parfums/ Mariette Julien
communication olfactive
Editeur: Harmattan Inc., 1997

Fisette, Jean

Titre: Pour une pragmatique de la signification/ Jean Fisette
Editeur: XYZ, 1997

Chateau, Dominique

Titre: Le bouclier d'Achille / Dominique Chateau
théorie de l'iconicité
Editeur: L'Harmattan, 1997

Descornes, Vincent

Titre: Les institutions du sens/ Vincent Descornes
Editeur: Minuit, 1996

Chauviré, Christiane

Titre: Peirce et la signification/ Christiane Chauviré
introduction à la logique du vague
Editeur: PUF, 1995

Habermas, Jürgen

Titre: Textes et contextes / Jürgen Habermas trad. de l'allemand

Mark Hunyadi et Rainer Rochlitz
essais de reconnaissance théorique
Editeur: Cerf, 1994

Charles Sanders Peirce/ éd. Denis Miéville colloque de
Neuchâtel, 16-17 avr. 1993

Apel, Karl Otto
Le Logos propre au langage humain / Karl Otto Apel trad. de
l'allemand Marianne Charnière et Jean-Pierre Cometti
Editeur: Eclat, 1994

Tiercelin, Claudine
Titre: C.S. Peirce et le pragmatisme / Claudine Tiercelin
Editeur: PUF, 1993

Tiercelin, Claudine
Titre: La Pensée-signe / Claudine Tiercelin
études sur C.S. Peirce
Editeur: J. Chambon, 1993

Logique et fondements des mathématiques
1, Logique et fondements des mathématiques / Institut
d'histoire et de philosophie des sciences et techniques dir.
François Rivenc, Philippe de Rouilhac, 1850-1914 anthologie
Editeur: Payot, 1992

Degrés
67, Sémiotiques visuelles, recherches québécoises
Editeur: Degrés, 1992

Deledalle, Gérard
Titre: Lire Peirce aujourd'hui / Gérard Deledalle
Editeur: De Boeck-Wesmael
Ed. universitaires, 1991

Marty, Robert

L'Algèbre des signes/ Robert Marty

essai de sémiotique scientifique d'après Charles Sanders

Peirce

Editeur: J. Benjamins, 1990

Part de l'oeil (La)

6 . Le Dessin / présentation Luc Richir

Editeur: Part de l'oeil, 1990

Everaert-Desmedt, Nicole

Titre: Le Processus interprétatif/ Nicole Everaert-Desmedt

introduction à la sémiotique de Ch.S. Peirce

Editeur: Mardaga, 1990

Deledalle, Gérard

Titre: Charles S. Peirce, phénoménologue et sémioticien/ Gérard

Deledalle

Editeur: J. Benjamins, 1987

Philosophie

10. La Métaphysique de Peirce

Editeur: Minuit, 1986

Callot, Emile

Titre: William James et le pragmatisme / Emile Callot

Editeur: Slatkine, 1985

Deledalle, Gérard

Titre: Théorie et pratique du signe/ Gérard Deledalle

introduction à la sémiotique de Charles S. Peirce

Editeur: Payot, 1979

